

حكايا وادي النيل

تأليف :

مكتبة السليمانية مؤلفي

أستاذة يسم الدكتورة :

نعمات أحمد فؤاد

كتاب اليوم

بشرى في سنة النشر

اهداءات ٢٠٠٢

الشيخ/ عبد العزيز توفيق جاويد
شيخ المترجمين - القاهرة

.....

حكماء وادي النيل

.....

تأليف : محمد العزب موسى

تقديم : الدكتورة نعلات أحمد فؤاد

■ **المشرف على التحرير : جمال الفيضاني** ■

● العدد ٣١٥ ● نوفمبر ١٩٩٠ ●



كتاب اليوم

اشتبه
مصطفى أمين وعلى أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة

لسمير سندس

العدد ربيع آخر ١٤١١ هـ

٣١٥ نوفمبر ١٩٩٠ م

تشرين الثاني

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط

تلکس دولى ٩٢٢١٥ - محلى ٩٢٢٨٢

الاشتراكات

جمهورية مصر العربيه

قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيه مصري

البريد الجوي

دول اتحاد البريد العربى

والافريقى ٢٠ دولار امريكى لوما يعادله

بباقي دول العلم واوروبا والامريكيتين

واسيا واستراليا ٢٠ دولار امريكى لوما يعادله

• ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

• ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٣ اش الصحافة

القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

في الخارج

إيطاليا	٢٠٠٠ ليرة
هولندا	٥ فلورين
باكستان	٣٥ روبية
سويسرا	٤ فرنك
اليونان	١٠٠ دراخمة
التمسك	٤٠ شلن
الدنمرك	١٥ كرونات
السويد	١٥ كرون
الهند	٣٥٠ سنغا
كندا امريكا	٣٠٠ سنت
البرازيل	٤٠٠ كرويزو
نيوزيلاندا	٣٥٠ سنغا
نورس اعلاوس	٤٠٠ سنت
استراليا	٤٠٠ سنت

أسعار كتاب اليوم

المغرب	٢٠ درهم
ليبيا	١٥٠٠ ليرة
الأردن	٧٥٠ فلس
العراق	٧٠٠٠ فلس
الكويت	٧٠٠ فلس
السمودية	٧ ريال
السودان	٩٠٠ قرش
تونس	١٤٠٠ مليما
الجزائر	١٧٥٠ سنتيما
سوريا	١٤٠٠ ق س
الحبشة	٦٠٠ سنت
الجبرين	٨٥٠ فلس

● الغلاف محمود الهندي ● الماكيت محمد عفت

مقدمة

بقلم : الدكتورة نعبات أحمد فؤاد

ككل شيء عظيم خالد ، الحضارة
المصرية .

يكتب فيها ، وعنّها ، الكاتبون
جيلا وراء جيل ، ويظل في أعماقها ،
وظاهرها ، نهر دافق يقول . وليس
نهرًا كالنيل يروى ويروى تاريخ
التاريخ على أرض صنعت للنهار ..
وصنعت الانسان . وكانت صناعاتها
الكبرى ، وإبداعاتها الكبرى ،
وعطاءاتها الكبرى :

الحضارة

حضارة باتعة .. رائعة .. مبدعة .. ممتعة ..
ينقدّمها عاداتها فتطول أكثر لأن الصدق باق .
ويتغنى بها بُنائتها ومعهم عشاقها حتى من الغرباء فتشرق
إشراقة وجه الحبيب رأى نفسه في مرآة حبيبه .



قرأت الكتاب لأكتب مقدمة له فسرقتني من نفسي وكدت افرغ منه ،
ولم أكتب بعد ، سطرا واحدا .
واعدت قراءته فوجدت جديدا على القارئ العلم أو السواد
الأعظم على الأقل . بل وجدت جديدا على أصحاب التخصصات
الأخرى . من هذا ، أبعاد قصة فرعون موسى . وهنا أستطيع أن
أضيف إليها لأهميتها .

قد يعرف خاصة الخاصة أن الأمم لا تقاس بفرد ولو كان فرعون
مصر وادع جانباً أن فرعون موسى براه واحد من كبار رجال الدين هو
الامام محيي الدين بن عربي الذي يقول في كتابه « فصوص
الحكم » : (بإيمان فرعون إيماننا لازماً ، وأنه لقي به طاهراً مطهراً ،
سالماً من العيب ، بريئاً من الذنب)
وظاهره في هذا الامام جلال الدين الدواني في رسالته الخطية
الموجودة بدار الكتب ، مستندين إلى الآية الكريمة :
(أمنت أنه لا إله إلا الذي أمنت به بنو إسرائيل وأنا من
المسلمين) .

(سورة يونس آية ٩٠)
وجعله ابن عربي آية على عنايته سبحانه لمن يشاء حتى لا ييأس
أحد من رحمة الله تعالى .
(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله
إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) .
(سورة الزمر آية ٥٣)
مرة أخرى أقول أو :

ادع جانباً أنه استشار قومه وعمل بنصيحتهم وأن ما حز في
نفسه ، المفاجأة القاسية التي عبر عنها بقوله (أمنت به قبل أن أذن
لكم ؟) .

(سورة الأعراف آية ١٢٣)
حتى بروتوكول تحكم تفكير ملك سليل الملوك .
ادع جانباً ، أنه ما من أمة أمنت كلها أو حادت كلها عن الإيمان .
ادع جانباً ، أن والد إبراهيم النبي ، قد كفر .
ادع جانباً ابن نوح النبي ، وقد كفر .
ادع جانباً أن فرعون موسى ، بشر ..
موسى في نظره ، الطفل الذي وجدوه على شاطئ النيل مجهول
الأب والام .

رباه في قصره وعلمه علم مصر .. حتى السحر تعلمه في اهناسيا
من اعمال بنى سويف .

هل من طبيعة البشر او طبيعة الاشياء أن يصدق فرعون بكل
هيله وهيلمانه ، وللهولة الأولى ، داعيا ، هو ربيب قصره ، اصف
الى هذا أن في نفسه ، منه ، ما فيها ، بعد أن قتل أحد المصريين .
وقد كذبت قريش - إلا قلة قليلة - بعد أن قطعت الإنسانية من
عمر الزمن دهورا بعده ، الزكي السرى الصادق الأمين وهو الذؤابة
منها شرفا ومحتدا ؟

لم يكن عند قريش عذر عصبية الجنس او عقدة الثار القديم
او مبرر الاستعلاء ؟

لقد كان موسى في نظر فرعون كما جاء في القرآن الكريم ، قاتل أحد
رجاله حتى ليقول له في رنة ألم لا تخفى .. ألم ممزوج بالدهشة
الحيرى :

(ألم نريك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين .. وفعلت فعلتك
التي فعلت وانت من الكافرين) .

ولم ينكر موسى (قال فعلتها اذا وأنا من الضالين)

(سورة الشعراء الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠)

أوت مصر موسى وربت وعلمت ولما اشتد عوده رأى في طريقه
مصريا ، وواحدا من بنى اسرائيل يتنازعان كما يحدث في حياة كل
يوم من اختلاف على المصالح .. ودون أن يسأل السبب او يقف على
جلية الامر ، وكز المصرى ففضى عليه .

ثم خرج ، مسرعا ، الى مدين

ولم ينس ملك مصر .. ولا نحن مهما تقادم العهد .

(قال رب إني قتلت منهم نفسا فاخاف أن يقتلون) .

(القصص آية ٣٣)

ألا يخطيء من ليسوا أنبياء ؟
وعندما يخطيء فرعون موسى هل ينسحب هذا الخطأ على كل
فرعون ؟ ألم يكن « أخناتون » متساميا موحدًا نبيلًا ؟

هل ملوك الفرس جميعهم ، قمبيز
هل خلفاء بني العباس ، كلهم ، السفاح ؟
هل سائر الفاطميين ، « الحاكم » ؟
وإذا كان فرعون موسى ، مخطئًا ، فموسى قتل ، منا ، نفسا وإخوة
يوسف القوا أخاهم الطفل في الجب وكذبوا على أبيهم . وأبناء
يعقوب سفاحون عندما ذبحوا أهل شكيم أثناء الحفلات الشعائرية .
إذا جاز أن يحسب علينا خطأ فرعون واحد فإن من المقابل ، أن
يحسب لنا أمجاد فراعين ، يكفي الواحد منهم ، أمة بأسرها ، في باب
المفاخر .

والاستاذ محمد العزب موسى يركز على قيم الفكر والعقل
والفضيلة حين تركز الدراسات والكتابات على فن مصر التشكيلي دون
فنها التعبيري وما أكثره وما أغناه وما أعمقه وهو منحى جدير
بالانتباه والاتجاه إليه .

هل قال بلد من البلاد ما سجلته مصر في متون الأهرام :

أنا لم أعص أوامر الآله .

أنا لم أعق والدى .

أنا لم ألوث ماء النيل .

أنا لم أصد الماء وقت جريانه .

أنا لم أطفئ في الكيل .

أنا لم أغش في القياس .

أنا لم أختطف اللبن من فم الرضيع .

أنا لم أطفئ شعلة في وقت الحاجة إليها .

وهي قيم خلقية .. وفي الوقت نفسه ركائز أساسية للدين

ديمقراطية الدين :

ملح سجله الكاتب .

ففى مصر ، بعد الثورة الشعبية ، تحولت العبادة من « رع » الى « أوزوريس » . وهذا يعنى الكثير ..

رع تتطلب عبادته وتتطلع عقيدته الى السماء ومتابعة حركات الشمس ، والكواكب والنجوم .. ولهذا كانت عقيدته الخاصة بينما عقيدة أوزوريس منتمية الى النيل ونابعة من أرضه وزرعه . عقيدة « رع » كانت تربط الخلود بالشواهد المادية من مقابر وتمائيل وتحنيط ومراكب شمس .

بينما عقيدة أوزوريس يحكمها الميزان وريشة العدالة .. والعدالة لا تفرق بين الناس مهما متفاوتت أقدارهم الاجتماعية .

على أن « رع » ، أثر ، عنه ، كما جاء فى نصوص احد التوابيت (خلقت الأنهار العظيمة كي يستخدمها الفقير والسيد العظيم وجعلت كل انسان مثل أخيه ، ونهيتهم عن فعل الشر ولكن قلوبهم هى التى لم تفعل ما أمرت به) .

وكانه يتنصل من التفرقة بين الناس ..

فى مصر اشتكى الفلاح ، واحدا من النبلاء وانتصر الملك ، له ، ورد اليه حقه .

وفى الكتاب وقفة « مقارنة » بين :

« بتاح حنب » و « لقمان الحكيم »

فقد لاحظ المؤلف أن :

— كليهما يوجه نصائحه الى ابنه

— طول العمر .

— انتهاج فضيلة التواضع ونبذ الصلف والتكبر على الناس .

اننا اذا اضعنا الى هذا توحيد مصر وقولها بالميزان والبعث

والحياة الأخرى والثواب والحساب والعقاب والجنة والنار ، عرفنا
لماذا تاصل الاسلام في مصر كما لم يفعل في أى بلد آخر .

ونوه الكتاب بقيمة خالدة وغالية ورفيعة من قيم مصر القديمة :
الكتب والكتاب . فقد جاء في بردية من عهد الرعامسة :
● الكتب أكثر خلودا من الأهرامات .

● ~~الكتب~~ هي مقاصير وأهرام في قلوب الناس .
● ان كتابا واحدا لأكثر نفعا من بيت متين الأساس ومن مقبرة في
العزب . من قصر منيف ومن نصب في معبد .

والكتاب في نظر مصر القديمة :

لم يقيموا لأنفسهم أهراما من نحاس . ولا شواهد قبور من
حديد . بل جعلوا من كتب الحكمة إرثهم الوحيد كانت اضمادات
البردى كاهنهم المرتل والواح الكتابة أبناءهم البررة وكتب
التعاليم ، أهراماتهم . والقلم ابنهم . والصفحات زوجاتهم .

وهذا هو الفرق :

حين قامت دولة الرومان على البطش والحرب ، وقامت دولة
اليونان على تقسيم المجتمع الى سادة وعبيد .. وطبعا السادة هم
الذين يحكمون ويتعلمون ويكتبون ويرسمون الخ ..

قامت حضارة مصر على الثقافة يأخذها ويعطيها كل ميسر لها ،
موهوب . وكم من عظماء الكتاب والحكماء في مصر ، خرجوا من
صميم الشعب .. وعلى رأس هؤلاء « ايمحتب » اول شخصية
موسوعية في العالم .

لقد كتب مجد مصر ، المصريون جميعا . فالملك خيتي ينصح
ابنه : (لا ترفع ابن الرجل العظيم على ابن الرجل المتواضع ، بل
قرب اليك الانسان حسب كفاعته الشخصية)

تقول « كريستين نوبلكور » : (التلميذ المصرى القديم اول تلميذ فى العالم) من مقال لها بمجلة هيستوريا الفرنسية التاريخية فى عدد خاص عن التعليم والثقافة ، قالت فيه :

(إن مصر هى التى اخترعت الكتابة ، والحساب ، والمدارس ، والتلمذة ومن يدرى لو لم تكن مصر قد فعلت ذلك ، لربما اتخذ تاريخ البشرية مجرى آخر) .

من تعاليم « خيتى » بن دوادف لابنه بيبنى :

عليك ان توجه قلبك لقراءة الكتب .

تامل : لا شئ يفوق قدر الكتب .

ليتنى اجعلك تحب الكتب . أكثر من أمك .

ليت فى مقدورى ان اظهر جمالها امام عينيك .

ان الكتابة اعظم من اية حرفة .

وهنا يرسم « خيتى » صورة كاريكاتورية لساثر الحرف .

اعتز دائما بأنه حين عاد « حورمحب » من حروبه مبتصرا مظفرا ، واراد المثال المصرى ان يصنع له تمثالا يمثل الملك الامبراطور ، طلب اليه « حورمحب » ان يكون تمثاله على هيئة الكاتب المصرى ! فى احساس دقيق وعميق بما للكتابة من معان وهالات ..

طلب « حورمحب »^٩ هذا بوراثة حضارية من البلد الذى جعل للكتابة الهة سماها « سيشات » وزوجها من اله الحكمة فى احساس وثيق بما بين الكتابة والحكمة من سفات وشيات . وفى مصر القديمة تبجيل للمعلم .

كن التلميذ ينلدى معلمه « سيدى » ولعله النداء الاب لقولنا فى الريف لعريف الكتاب فى القرية (سيدنا) . وفى مصر الحديثة يقول شاعرنا شوقى :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم ان يكون رسولا

أعلمت اشرف او أجل من الذى يبنى وينشئ انفسا وعقولا
وكلمة اشرف فيها حس القداسة وهى غير (أعظم) او (أكبر)
ولم لا ؟

سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الاولى
ان مصر الحديثة تسير على درب مصر القديمة فإذا التريخ على
ارضها منتظم الخطى لا تنقطع له مسيرة .

ولعل هذا التقديس للعلم من أسرار مصر . قد يفوتها الحكم .. قد
تخسر معركة .. ولكنها فى القوة والضعف تشع العلم حتى لتقابل
الغزو العسكرى ، حين حدوثه ، فى الفترات الحزينة ، بغزو ثقافى ..
يغزو الفرس ، مصر ، ويطلب « دارا » فى إبان اشتداد مرضه ، طيبيا
من مصر ..

ويتعالى الرومان بجهالة وجهامة ، غداة الفتح ، ثم يهتزون امام
سخريتها بهم ومنهم ، فيحرمون على المحامين المصريين ، الترافع ،
أمام محاكم الاسكندرية لان السخرية المصرية تهز هيبة القضاء
الرومانى .. ثم يؤول أمرهم فى النهاية الى عبادة ايزيس فى الاسكندرية
تقربا الى الشعب المصرى ثم فى روما نفسها ! وتنقلب عبادة ايزيس
من روما الى فرنسا فتسمى اكبر مدنها باريس أى بيت ايزيس ولعل
الذين يرجحون هذا ، يستندون الى أن « بيت » فى الهيروغليفية
يسمى (بـز) .. وإيزيس فى الهيروغليفية « إيسه » أى
(برايسه) .. فباريس .



اعود الى الكتاب .. الفصل الأخير من الكتاب عقد مقارنة شائقة
بين مصر القديمة ومصر الحديثة أوضح فيها وجوه الشبه بينهما
خاصة فى الريف واحواله وحرفه وبيوته وأزيائه وعاداته وتقاليده
بل أسماء المدن وكثير من الفاظ الحياة اليومية بل القصص
والأساطير .. بل الموالد والأعياد كمولد الحجاج فى الأقصر وهو

خطوة بخطوة عيد آمون .. وقد فصلت هذا في أكثر من كتاب .
انها كما يقول الدكتور جمال حمدان ملتقيا مع المؤلف ومعى :

وحدة الحياة على ضفاف النيل :

معنى يلتقى عنده المخلصون لهذا البلد وسط خضم النفاق
والاسترقاق والاسترزاق .

معنى كبير جامع .. وحدة يجب أن نركبها ونحييها في نفوس
المصريين خاصة النشء مناط الأمل في إقالة العثرة الحاضرة ،
وموطن الرجاء .

وحدة يجب أن تلتفت اليها المدرسة المصرية التى تبدأ تدريس
الأدب بالعصر الجاهلى ولا مانع عندنا من دراسته على أن يأتى في
توقيته الزمنى ولكن البداية هى البداية الباكرة والبكر .. هى مصر
القديمة بما أبدعت من روائع خالدة في الآداب والفنون والعلوم .
وحدة يجب أن يلتفت اليها التلفزيون المصرى باعتبار
التلفزيون كاداة ، معلم الشعوب بما يملك من وسائل الاستهواء
وشد العدد الأكبر على تفلوت التعليم واختلاف الثقافات .

وحدة الحياة على وادى النيل يجب أن تكون :

● نقطة تحول .

● نقطة انطلاق .

إن أزمنا ليست بالدرجة الأولى أزمة اقتصادية كما يتردد ولكنها
أزمة معنوية وأزمة أخلاقية .. أزمة اختراق الإنسان المصرى وهنا
يكون تعريفه بذاته وانعطافه الى تاريخه ليس افتخارا أو زهوا ،
ولكن بنا للثقة فيه وانتشاله من وهدة اليأس وردا لغربته
النفسية .. فيحترم نفسه ويجبر الآخرين على احترامه .
وهنا فقط تتخفف الحياة الحاضرة من العشوائية وامتزاز القيم ،
واختلال المقاييس .. فترشد وتستقيم مسيرتها وسيرتها ..

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .
(١١ م الرعد ١٣)

انه التغيير

مفتاحا للحل ..

وبعد فإن قارئ هذا الكتاب ، كما قرأته ، لا يملك إلا أن يشكر
المصري الأستاذ محمد العزب موسى الذى كان صادقا مع نفسه ..
صادقا مع تاريخنا ..
وليس ، قيمة ، كالصدق في كتابة الكاتبين ..

دكتورة نهيات أحمد فؤاد

القاهرة يونيه ١٩٩٠

فكرة العدالة في مصر القديمة

لا أتصور أن هناك حضارة من الحضارات تعرضت لحملة من الاقتراءات والاكاذيب والتشويه مثلما تعرضت لها الحضارة المصرية القديمة .. هذه الحملة الظالمة التي استهدفت مصر بداها بنو اسرائيل بعد خروجهم الشهير ، وشارك فيها اليونانيون الذين استوطنوا مصر في اواخر عصورها الذهبية ، ثم الاغريق الذين جاءوها في زمن البطالمة ، فالرومان الذين جعلوها اهرأ قمح لروما وحرموا وابناءها دون سائر شعوب الامبراطورية حق المواطنة الرومانية ، ثم المسيحيون المصريون الذين فصموا تاريخها ودمروا رموز عقائدها القديمة ، فالعرب المسلمون الذين لم يروا في تلك الحضارة العظيمة سوى الكفر والطغيان وعبادة الأوثان .

ولم تبدأ هذه الغمة في الزوال إلا في العصر الحديث على ايدى الدارسين والمثقفين الغربيين الذين اصابتهم الدهشة لاكتشافهم هذه الحضارة المذهلة .. اى كنز ! اية عظمة ! اية ثقافة ! تنطوى عليها تلك التحفة الكلاسيكية الرائعة المسماة مصر القديمة !

ومن اشد ما يحز في القلب ان بعضا منا نحن المصريين المحدثين ، ولنقل بل والكثيرين ، لم تصل اليهم هذه الدهشة بعد ، جهلا او تغريرا ، فمازالوا يأنفون من ذكر مصر القديمة ، ويرونها مجرد أمة بائدة من الوثنيين ، ويفصمون بين حاضرمهم وماضيهم المجيد بشتى الدعاوى الخاطئة ، كما لو كان التنكر لحضارة الأجداد هو ما يجعل عروبتهم سليمة او اسلامهم صحيحا !

هذه الاقتراءات والأفكار السقيمة أن لها أن تسقط مرة واحدة والى الأبد .. أن للمصريين أن يفتحوا عيونهم على كنزهم القديم ، ليس

بما يحويه فحسب من آثار شامخة تنتشر في أنحاء الوادى وتحف
فنية تزين معظم متاحف العالم ، وإنما أيضا بما كانت قنطوى عليه
هذه الحضارة من قيم اخلاقية ومعنوية وفكرية رفيعة كانت بمثابة
الدم الذى يجرى في شرايينها ، وكانت هى السبب في استمرارها
وبقاءها هذه الالاف من السنين ، فلا يعقل أن تدوم حضارة ما كل
هذه المدة الطويلة اذا كانت قائمة على الظلم والاستبداد ، فالظلم
لا يقيم حضارة ، والاستبداد لا يسند حكما ، أو كما يقول الامام
على بن أبى طالب كرم الله وجهه « الحكم يدوم مع الكفر ، ولا يدوم
مع الظلم » .

★ ★ ★



فرعون موسى :

وتقوم هذه الاتهامات الخاطئة أساسا على ما يتصوره البعض من ان القرآن الكريم قد ادان مصر القديمة ، واستنكر حضارتها ، واهلها ، طبقا لما فهموه من ظاهر الآيات القرآنية الخاصة بموسى وفرعون . والحقيقة ان هذه الأدلة القرآنية لا تنصب إلا على فرعون موسى وحده وحاشيته وانصاره ممن ظلوا على الكفر بعد ان تبين لهم الحق ، وفيما عدا تلك الزمرة الحاكمة ، أو الطغمة الكافرة ، لا نجد في القرآن الكريم سوى الاشادة بمصر وارضها الطيبة .

يكفى في هذا الصدد ان نقارن بين جلساء فرعون واصحاب النمروذ ، فعندما استشار فرعون جلساءه في امر موسى وهارون دلوا على انهم من ذوى العقول الراجحة والنظرة المتحضرة ، إذ قالوا لفرعون :

« قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين .
يأتوك بكل سحار عليم » .

(الشعراء . ٣٦ - ٣٧)

فاين هذا من قول اصحاب النمروذ لما استشارهم في امر ابراهيم الخليل فاشاروا بقتله فورا ، إذ قالوا :

« قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين » .

(الانبياء ٦٨)

جلساء فرعون يدعون الى المواجهة بالحوار وإقامة الحجة والبرهان ، وهذا ما تم فعلا في « يوم الزينة » حين حشر الناس ضحى ، وجرت المناظرة الكبرى بين موسى والسحرة على ما اوضح القرآن الكريم في اجلى بيان .

وما كان اسهل على فرعون لو لم يكن في وسط متحضر ان يامر بقتل موسى وهارون فوراً ، بل ان هذا الخاطر كان فعلاً بذهنه كما تحدثنا الآية الكريمة :

« وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع^١ ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد » .

(غافر - ٢٦)

ولكنه لم يستطع ان يفعل ذلك بمجرد ان طاف في خاطره لان طبيعة الحضارة المصرية لم تكن لتسمح به ..
ومما يدل كذلك على الطبيعة المتحضرة للمجتمع المصرى القديم ان السحرة آمنوا بموسى في ساعة واحدة عندما تبين لهم انه على حق ، وهؤلاء السحرة لم يكونوا مجرد حواة يتلاعبون بالعصى والحبال ويوحدون للناظرين انها حية تسعى ، وإنما كانوا في واقع الامر علماء وحكماء ، اى خلاصة المثقفين في المجتمع المصرى ، وهم لم يخشوا بطش فرعون وعذابه ، ولم يترددوا في اعلان ايمانهم وخذلان فرعون في مواجهته رغم معرفتهم بما ينتظرهم من عذاب :

« وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . قال فرعون آمتم به قبل أن أذن لكم أن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين . قالوا إنا الى ربنا متقلبون . وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا

صبرا وتوفنا مسلمين » .

(الامراء : ١٢٠ - ١٢٦)

هذا الموقف من اعظم مواقف الانتصار لحرية الفكر والشجاعه
الادبيه فى مواجهه الطغاة ..
ولم يكن السحره وحدهم اصحاب هذا الموقف الشجاع بل هناك
ايضا اسيا امراة فرعون التى مدحها الله تعالى فى القرآن الكريم
وضرب بها مثلا :

« وضرب الله مثلا للذين آمنوا امراة فرعون
اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى
فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » .

(التحريم : ١١)

وهناك ايضا ذلك المصرى المجهول الذى نعرفه بوصفه « مؤمن
آل فرعون » الذى دافع عن موسى وانتصر لرسالته غير عابىء بما
ينتظره من عقاب :

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه
أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات
من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وأن يك صادقا
يصبكم بعض الذى يعدكم- إن الله لا يهدى من هو
مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى
الأرض فمن ينصرونا من بأس الله ان جاءنا » ..

(غافر : ٢٨ - ٢٩)

ويذكر التراث الاسلامى ايضا ماشطة بنت فرعون التى آمنّت
بموسى عليه السلام فتمشطها فرعون هى وأولادها بأمشاط من حديد
كما يمشط الكتان ، وهى ثابتة على ايمانها بالله تعالى ، ويروى عن

ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كنت ليلة
أسرى بى انت على رائحة طيبة ، فقلت يا جبريل ما هذه الرائحة
الطيبة . قال : هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها .
ان تحليل قصة موسى وفرعون فى مختلف مواقعها فى القرآن الكريم
يحمل فى ثناياه من الثناء على مصر والمصريين قدر ما يحمل من الادانة
والسخط على فرعون وملئه ، بل حتى فرعون موسى مع ما عليه
الاجماع من كُفْره وعصيانته وجد بين كبار مفكرى المسلمين من يقول
بصدق إيمانه لقول فرعون :

« آمنت انه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل
وأنا من المسلمين » .

(يونس : ٩٠)

واقصد هنا بالتحديد اكبر علماء الصوفية بلا منازع محيى
الدين بن عربى (راجع كتاب « ايمان فرعون » للامام جلال الدين
الدوانى - تحقيق ابن الخطيب) .
ولكن اصحاب الحملة الظالمة على مصر وحضارتها لا يذكرون
شيئا من هذا كله ، ويركزون فقط على كفر فرعون وجبروته ، وكان
مصر تتحمل وزره الى ابد الأبد .

★ ★ ★

ماعت .. ربة العدالة ..

عرفت مصر القديمة فكرة العدالة ، وكانت هناك معايير دقيقة لتطبيقها ، وأدبيات كثيرة تشيد بها . كانت هناك آلهة للعدالة المطلقة تسمى « ماعت » هى ربة العدل والحق والصدق ، تصورها النقوش فى هيئة سيدة واقفة أو جالسة مرتكزة على عقبيها ، وتحمل فوق رأسها ريشة طاووس ..

ان « ماعت » كانت تعنى الصدق والشجاعة والعدالة والحق والفضيلة ، كانت بمثابة دستور أخلاقى غير مكتوب يهتدى به الناس فى معاملاتهم ، كانها تقول للانسان : قل الصدق .. إفعل الخير .. الخ

وهذه الفضائل لم تكن تنبع أصلا من الدين ، وإنما نبعت من المجتمع الواقعى وصميم احتياجاته فى وقت كان الدين لايزال يحلق فى السماء بحثا عن الآلهة فى قوى الطبيعة وما وراء الطبيعة . فالدين لآى شعب من الشعوب البدائية ، أو التى لا تزال فى أولى مراحل التطور ، نشأ نتيجة حالة الانبهار بمظاهر الطبيعة والخوف من قواها المجهولة وحاجة الانسان الى قوة عليا تحميه من المخاطر الكثيرة التى تترصد به ، كالزلازل والبراكين والوحوش الكاسرة والأمراض الفتاكة . وظل الانسان يبحث عن هذه القوة الخفية فى كل شئ حتى اذا وجدها ، أو اطمأن الى أنه وجدها ، أخذ يقدم لها فروض الطاعة والولاء .

ثم أخذت فكرة الفضيلة (ماعت) وفكرة الدين تتقاربان ، فقد ظهر من الأوفق أن تعتمد الفضيلة على الدين وأن يرتكز الدين على

الفضيلة ، وكان ذلك ايذاً بنزول الآلهة الى الأرض وعنايتهم بشئون البشر ، وبدأ الناس يتلقون أوامرهم الاخلاقية من الآلهة « لا تقتل .. لا تسرق .. لا تكذب .. » ، وأصبحت (ماعت) هى حلقة الوصل بين الدين والأخلاق ، أو بين السماء والأرض ، وعندما تقدمت الدولة تقدماً كبيراً نحو المركزية لم يجد الحكماء أفضل من كلمة (ماعت) للتعبير عن النظام الأخلاقى الاجتماعى الذى تقوم عليه الدولة ، وهو ما يسمى بالنظام العام فى المفهوم الحديث ، وبعد أن كانت (ماعت) فضيلة فردية أصبحت دستوراً عاماً للفضائل الجماعية التى لا يستقيم بدونها الحكم ، فصارت تعنى النظام الذى هو ضد الفوضى ، والعدل الذى هو ضد الظلم ، والصالح الذى هو ضد الفساد ، وأصبحت من الألقاب الرسمية للملك بوصفه تجسيدا لفكرة الآلهة على الأرض ، وربة للقضاة يرتدون شعارها عندما يجلسون للحكم بين الناس ، كما يرفعون الآن فوق رؤوسهم الآية الكريمة « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وعملية الحساب فى العالم الآخر تتم فى تصور المصرى القديم بأن يوضع قلب الميت فى إحدى كفتى الميزان وريشة العدالة (ماعت) فى الكفة الأخرى ، حتى يجرى وزن الحسنات والسيئات بدقة مطلقة بواسطة هذا الميزان البالغ الحساسية .

« فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ،
وأما من خفت موازينه فأمه هاوية » .

(القلعة . ٦ - ٩)

ويكفى هذه الموازين دقة أنها مجرد ريشة لا يكاد يكون لها ثقل على الإطلاق ، أنها تشبه « متقال ذرة » الإسلامى الذى يحدد وزن الخير والشر ..

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل
مثقال ذرة شرا يره » .

(الزلزلة ٧ - ٨)

والواقع ان « ماعت » اخف من مثقال الذرة نفسه ، لأنها ليست
شيئا ملديا في الأصل ، وإنما هي « معنى مجرد » جرى تاليهه ، ولذا
فإنها تختلف عن الآلهة الأخرى التي ترمز الى قوى مادية مثل مظاهر
الطبيعة ولاشك ان تاليه الرمز أو الفكرة يدل على مستوى رفيع من
التطور العقلي .

و « ماعت » كانت أيضا غذاء للآلهة ، فالآلهة الأخرى كما نعرف
من النصوص الهيروغليفية تحب ان تتغذى على « ماعت » دون
غيرها من القربان اى ان غذاء الآلهة هو الحق والصدق والعدالة ،
ولذا نجد في مراسم العبادة ان تقديم « ماعت » الى الآلهة هو الذى
يسرهم ويفرح قلوبهم أكثر من أى شيء آخر . يقول أحد النصوص
« فضيلة (ماعت) الرجل المستقيم خير عند الآله من ثور يقدمه
صانع الأثام »

(من التعليم الموجبة الى مريكلر)

وعلى جدران المعابد نشاهد صور الملك وهو يقدم مختلف القربان
للآلهة ، ولكن صورته في قدس الأقداس بالذات تبينه وهو يقدم للآله
نموذجا صغيرا لماعت ، فهذا هو القربان الذى يرضى الآله أكثر من
اى قربان آخر مهما كان ثمينا ووفيرا ..

وأرى ان تقديم الملك لرمز « ماعت » الى الآله في قدس الأقداس
يعتبر بمثابة « مادة دستورية » أساسية في الحكم . وهى ان الملك
ملتزم أمام الآله بالعدالة بين الناس ، ونفهم من ذلك منطقيًا ان الملك
الظالم الذى لا يلتزم بالعدل بين الرعية يكون مطرودا من قدس
الأقداس ، اى مطرودا من رحمة الآله ، وبالتالي ليس له سند في
الحكم .

وليس بعد ذلك معيار أكثر تشددا في ضرورة الالتزام بالعدل ..
انه أساس الملك !

★ ★ ★

الحاكم العادل ..

إذا كان فرعون موسى قد دمع بالكفر والعناد ، وضرب به المثل في الطغيان والاستبداد ، فإن كثيرا من الفراعنة الآخرين عرفوا تاريخيا بالعدل والتواضع والقيام بصالح الأعمال وتعلقت بهم قلوب الرعية فظلت سيرتهم عطرة حتى المراحل الأخيرة من العصور الفرعونية ، ومن هؤلاء مينا موحد القطرين ، وزوسر صاحب الهرم المدرج بسقارة ، وسنقرو مؤسس الأسرة الرابعة ، ومنقرع صاحب الهرم الثالث بالجيزة ، وامنمحات رائد النهضة الزراعية في الدولة الوسطى ، وأحمس طارد الهكسوس .. فهؤلاء وأمثالهم قد ظلوا يذكرون بالخير والثناء ، وظلت تقام لهم الشعائر في المعابد حتى مطلع العصر الروماني .

وبالرغم من الطبيعة « التوتاليتارية » للمجتمع المصرى القديم وتفرد الفرعون بالسلطة الدينية والمدنية ، إلا انه لم يكن بالضرورة حاكما طاغيا ، بل كان الملك يلقب « بالاله الطيب » ويعتبر همزة الوصل بين السماء والأرض أو بالتحديد الها سماويا رضى أن ينزل الى الأرض ليحكم بين الناس بالعدل ويحقق الرخاء لشعبه . ولذلك فإن المصريين يربطون منذ أقدم العصور بين الرخاء والحاكم الصالح ، ويرون أن أزمة الشدة والشقاء والجاعة والفقر دليل على ظلم الحاكم وعدم التزامه بالعدل .

والملاحظ أن نغمة « الحاكم العادل » قوية النبرة في الفكر المصرى القديم ، بل كانت هناك مدرسة كاملة من المفكرين الاجتماعيين في عصر ما بعد الثورة الشعبية الذى تلى انهيار الدولة القديمة ترى أن اصلاح الأحوال يتوقف على ظهور الحاكم العادل الذى يعيد الأمور الى نصابها ويقضى على الظلم والفساد .

فنجد الحكيم ايبور يتحدث عن هذا الحاكم الصالح او المهدي المنتظر ، ويتنبأ بمقدمه ، بل ويحدد الصفات المنشودة فيه ، فيقول :

« انظر اين هو ليسوى بين البشر ، ويبرد لهيب الحريق (الاجتماعى ؟) ويقال عنه انه راعى الانسانية ، ولا يحمل في قلبه شرا ، وعندما تشرد قطعانه يمضى يومه فى جمعها ؟
« اين هو اليوم ؟ هل هو بطريق الصدقة نائم ، انظر ! ان باسه لا يرى ! »

اما الحكيم نغرو هو فإنه يتحدث عن الحاكم العادل الذى يبشر به (وهو فى الواقع امنحات الأول) وعن عصره الذهبى المنتظر ، فيقول :

« ان الذين سيعيشون فى زمنه سوف يبتهجون لأن « ابن الانسان » سيجعل اسمه خالداً ابد الأبدین ، وهؤلاء الذين يتامرون على الشر ويحيكون المؤامرات سيخلقون افواههم خوفاً منه .
« ان الآسيويين سوف يسقطون بسيفه ، والليبيين سوف يحترقون بلهبه »

« ان ثعبان الصل على جبينه سوف يخضع المتمردين . »
« ان الفضيلة (ماعت) سوف تعود الى مكانها ، والظلم سوف ينبذ ، فليبتهج أولئك الذين سوف يشاهدون ذلك ، ويخدمون هذا الملك .. »

ويرى برستيد ان مثل هذه التنبؤات بمقدم الراعى الصالح يمكن اعتبارها بمثابة فجر التبشير بالمسيحية ، فبعد أكثر من ألف وخمسمائة عام من عصر هؤلاء الحكماء المصريين القدامى بدأ انبياء بنى اسرائيل يبشرون بظهور المسيح الذى ينهضون على يديه من كبوتهم .

وتحمل التعاليم الموجهة من « اخيتى الرابع » (احد ملوك
اهناسيا) الى ابنه مريكارع مسحة واضحة من التواضع
والديموقراطية تدل على مدى ارتباط السلطة بالمسؤولية الاجتماعية
لأول مرة فى تاريخ الفكر السياسى . فالملك لم يعد ذلك الحاكم الجبار
المتغترس ، ولكنه أصبح خادما للشعب وراعيا للقطيع كما كان يأمل
الحكيم ايبور ..

يقول اخيتى الرابع مريكارع :

« تحل بالفضائل حتى يثبت عرشك على الأرض ، هدىء من روع
الباكى .. لا تظلم الأرملة .. لا تجرد احدا من املاكه ، ولا تطرد
موظفا من عمله ، ولا تغدر بزميل تلقى معك العلم » ..
ويستطرد قائلا :

« لا تكن فظا بل كن رحيم القلب . اجعل هدفك حب الناس لك ،
فالناس سوف يشكرون الاله لأنه منحهم اياك وسوف يمتدحون
عصرك ، ويدعون لك بالصحة » .

ويذكر الملك ابنه مريكارع بأن مسؤولية الحكم ثقيلة ، وانه
لا يكفى ان يعتمد على وراثته للعرش ، بل عليه أن ينحل بالحكمة ،
ووسيلته اليها هى القراءة والوقوف على ما خلفه الأجداد من كنوز
العلم والثقافة .

دستور الفلاح الفصيح ..

وقصة الفلاح الفصيح مشهورة بما فيه الكفاية ، فلا داع لذكرها بالتفصيل ، ولكنها بالأجمال قصة فلاح بسيط يدعى « خوناوب » ، تعرض لظلم فادح من شريف يدعى « تحوت - نخت » فذهب الى كبير أمناء الملك ويدعى « رينسى بن ميرو » كى يعرض عليه شكايته طالباً أن يقتص له من ظلمه .

يقول خوناوب (من ترجمة الدكتور على حافظ عن النص الفرنسى لجوستاف لوفيفر) :

« هل ابحتم للشريف أن يسلب رجلاً ليس له ولى ، وينهب رجلاً ليس معه أحد ؟ »

ويرى هذا الفلاح البسيط - كما يفهم من كلامه - أن سبب الظلم الاجتماعى هو فساد الطبقة الحاكمة وعدم تعفف كبار الموظفين والقضاة ..

« ان كبار الموظفين يأتون الأعمال السيئة وسراة القوم يحددون عن الطريق السوى والقضاة يرتشون » ..

« ان الذى ينبغى أن يأخذ بتلابيب المسئء لا يفعل شيئاً ، ..

« والذى ينبغى أن يقضى بالعدل قد أمسى سارقاً . والذى ينبغى

أن يقضى الحاجات للناس قد أنزل العوز بالناس » ..

« والذى ينبغى أن يستأصل الشرور أصبح يرتكب المظالم ،

« والذى ينبغى أن يبين سبيل القانون صار يأمر بالسرقة » .

« ان كبار الموظفين لصوص وقطاع طرق ، فمن ذا يبيد المظالم اذا

استحل حامى العدالة أن يميل كل الميل ؟ »

ويخاطب خوناوب كبير الامناء رينسى بن ميرو قائلاً : « فلتنكن

عصمة للمظلوم ، وليكن شاطئك آمناً ، فإن التماسيح تعبت فى

الأرض من حولك »

« وليكن لسانك عادلا فلا تضل سواء السبيل ، ولا تكذب فانت
الميزان ، ولا تخلف الوعد فإنك أنت الاستقامة » ..
ولكن رينسى بن ميرو يشيح بوجهه عنه عملا بأمر الملك كي يفيض
الفلاح بكل ما لديه من الفصاحة ، فيأخذ خونانوب يعنفه قائلا :
« انك كصاحب السفينة الذى لا يحمل إلا من يعطيه اجر
الركوب »
« انت تعيش بين الناس بغريزة الصقر الذى يفترس ضعاف
الطير »
« انك كالطباخ متعته ان يذبح الطير دون ان يؤاخذ بما ذبح
منها »
« انك كمدينة لا حاكم لها ، وجماعة لا سيد لها ، وسفينة لا زبان
فيها ، وعصبة لا قائد لها » .
« انك كالحارس الذى يسرق ، والحاكم الذى ينهب ، وامير سليل
على عصابات الاجرام » .
ثم يعود خونانوب فيخفف من لهجته ، ويدعو رينسى بن ميرو من
جديد الى اقرار العدل ، ويحذره من الظلم قائلا :
« امنع السارق ، واحم المسكين ، ولا تكن تيارا جارفا على من
استجار بك ، اتق دنو الاجل ، واحذر ان يذهب بك حبل الدفة الى
عكس ما تريد فإنما تتزن امور البلاد بالعدل . كن رحيمًا محسنًا
ونقب عن الحقيقة ، ولا تكن ظالما حتى لا تدور عليك الدوائر ،
لا تسلب فقيرا قوته ، ولا تنهب ضعيفا ماله ، فإن مال الفقير
حياته ، ومن اخذ مال الفقير فقد خنقه » .
« وقد وليت لتقضى فيما بين الناس من خصام ولتعاقب المجرم » .
ويقول له : ايضا :
« ان العدالة خالدة ابد الدهر ، وهى تنزل القبر مع من يقيمها ،

فإذا توارى في قبره ووضع في التراب فلن يمحي ذكره من الأرض ، فسوف يذكره الذاكرون بما فعل من خير ، هذه سنة الله في أرضه .. وتنتهى قصة الفلاح الفصيح نهاية سعيدة ، إذ يرفع رينسى بن ميرو صحائف الشكوى التى كان يسجلها كتبته الى الملك الذى يسر بها أكثر من سروره بأى شئ فى مملكته ، ويأمر بإقرار العدل ، وإنزال شر العقاب بالمعتدى رغم انه ينتمى الى طبقة النبلاء . هذه مقتطفات مختصرة من شكاوى الفلاح الفصيح التى تقع فى ٤٣٠ سطرا ، وتعد اول وأقوى صيحة فى سبيل العدالة الاجتماعية فى مصر القديمة وتاريخ البشرية أجمع . ولاشك أن مثل هذه المعانى النبيلة التى عبرت عنها قصة الفلاح الفصيح كانت جزءا من افكار الشعب الشائعة فى ذلك العهد السحيق ، وهى فى نفس الوقت تعبر عن درجة عالية من الوعي السياسى والاجتماعى ، بل يمكن اعتبارها اول صيحة فى سبيل الديمقراطية وحقوق الانسان ، وهى تربط فى ذكاء ووضوح بين السلطة والمسئولية ، وتكاد تقول صراحة ان شرط بقاء الحاكم فى الحكم أن يقوم بتنفيذ التزاماته نحو الشعب ، فقد وليت لققضى فيما بين الناس من خصام ولتعاقب المجرم ، فإذا لم يفعل الحاكم ذلك فإنه يفقد سند ولايته على الناس .

ان بعض هذه الافكار التى يسوقها الفلاح الفصيح اشبه بمواد دستورية تحدد واجبات الحاكم ، وهى جديرة بأن يتضمنها أحدث ميثاق بإقرار حقوق الانسان .

فهل يصح بعد ذلك أن يقال أن حضارة مصر القديمة قامت على الظلم والطغيان ؟ !



حكماء وادى النيل

كانت مصر القديمة أرض الحكمة والحكماء ،
مثلا هي أرض العلم والعلماء . وقد صارت
الحكمة المصرية مضربا للأمثال منذ قديم الزمان ،
وحفظ لنا التاريخ أسماء الكثيرين من حكماء
وادى النيل الذين عاشوا فى مختلف العصور
الفرعونية وتركوا تعاليم ونصائح كانت نبراسا
يهتدى به المصريون فى حياتهم ، ويتناقلونها جيلا بعد جيل ، وقد
نجت بعض هذه الأقوال الحكيمة من برائن الزمن ووصلت إلينا
سائلة بدرجة أو أخرى ، ولكن هناك حكماء آخرين لم تصل إلينا
سوى أسمائهم مع أنهم لا يقلون شهرة بل قد يزيدون ومنهم أيمحتب
العظيم وزير الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ، وكان حكيما وطبيبيا
ومهندسا وفلكيا وكاتبا وكبيرا للكهنة المرتلين ورفع فى أواخر
العصور الفرعونية إلى مرتبة إله الطب ، وحريديف ابن الفرعون
خوفو باني الهرم الأكبر ، وكان أميرا عاقلا طبيب المعشر مطلعا على
تاريخ الأجداد ، وقد هجر فيما يبدو السياسة فى ذلك العصر المليء
بالصراع وتفرغ للحكمة ومصاحبة السحرة والعلماء ، ومنهم أيضا
أمنحتب بن حابو وزير الفرعون أمنحتب الثالث الذى وصلت فى
عهده الامبراطورية المصرية إلى قمة الثراء ، وينسب إليه أنه باني
تمثال ممنون الشهيرين وكان وزيرا وطبيبيا ومهندسا ، وبالرغم من
أنه كان فردا عاديا ينتمى إلى أسرة متواضعة من « بنهاو » إلا أنه
رفع إلى مصاف الآلهة - مثل أيمحتب - وأقيم له معبد فى جبانة طيبة
الغربية .

لقمان الحكيم هل هو مصري ؟

تحدث القرآن الكريم عن لقمان الحكيم وأورد سورة باسمه هي السورة رقم ٣١ وعدد آياتها ٣٤ آية ، وقد نزلت في الفترة المكية المتأخرة ، ويختص ذكر لقمان منها بالآيات من ١٣ إلى ١٩ والسورة بوجه عام تتحدث عن الحكمة .

وقد اختلف السلف في لقمان الحكيم ، هل كان نبيا أو عبدا صالحا على قولين ، والأكثرون على الثاني ، ولا يعرف عنه سوى النذر القليل ، وهو يرتبط عادة بطول العمر فكان يلقب بالمعمر ، وزعم الرواة أن عرب الجاهلية كانت لديهم « مجلة لقمان » وهي كتاب يحوى الحكمة والعلم والأمثال ، وقد بالغوا في حكمته وعلمه ، وقالوا إنه كان « حكيما عالما بعلم الأبدان والأزمان »

وتضارب الاخباريون كثيرا في شأن لقمان الحكيم الذى ذكره القرآن الكريم ، فقال بعضهم إنه ابن أخ ابراهيم أبو الأنبياء ، وقال آخرون بل هو ابن أخت أيوب أو ابن خالته ، وجعله البعض من حمير ، وصيره آخرون قاضيا من قضاة بنى اسرائيل .

ولكن هناك تراثا عريضا يربط بين لقمان الحكيم ومصر ، أو صعيد مصر على وجه التحديد ، قال ابن عباس كان لقمان عبدا نوبيا نجاره ، وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان من سوران مصر ذا مشافر إعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة . وقال المسعودى إنه كان نوبيا وكان عبدا صالحا من الله عليه بالحكمة .

هذا التراث الذى يربط على نحو ما بين لقمان وصعيد مصر لا بد ان يذكرنا بحكيم حقيقى عاش في عهد الدولة القديمة بمصر وهو بتاح حتب ، ولدينا ثلاث برديات تحوى تعاليم هذا الحكيم ، اثنتان منها كتبتا في عهد الدولة الوسطى والثالثة كتبت في عهد الدولة

الحديثة ، ونستطيع ان نجد تشابها واضحا بين تعاليم هذا الحكيم
المصرى القديم وعظمت لقمان لابنه فى القرآن الكريم .

وقبل البحث عن هذا التشابه اللافت للنظر لابد من كلمة عن فكر
لقمان الحكيم كما ورد فى القرآن الكريم .. ان حجر الأساس فى فكر
لقمان الحكيم هو عبادة الله بصدق وإخلاص ، ان عدم الشرك بالله
ومخافته وعبادته راس الفضائل جميعا .

« ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله ومن
يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غنى حميد .
وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن
الشرك لظلم عظيم »

(لقمان : ١٢ - ١٣)

ان لقمان يعتبر نموذجا للحكمة لأنه كان يعرف أن الحياة الفاضلة
فى هذا العالم تنبع من عدم الشرك بالله ، فان بداية كل حكمة هى
الامتثال لارادة الله اى علينا أن نفهم العلاقة بيننا وبين الله وأن
نعبد حقه بعبادته ، وعندئذ سوف نكون فضلاء وخيرين ازاء
البشرية ابتداء بوالدينا خاصة :

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على
وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى
المصير »

(لقمان : ١٤)

فالواجب نحو الله والواجب نحو الوالدين ليسا منفصلين بل
انهما واجب واحد ، وإذا ظهر صراع بينهما فان ذلك يرجع إلى خطأ
ما فى الارادة الانسانية ، وفى هذه الحالة يجب أن نطيع الله
لا الانسان ، ومع ذلك لا يجب أن نكون قساة أو متغربين بل نظل
رحماء بالوالدين (وبالمجتمع عموما) فنتعاش معهم بالمودة
والمعروف على أن يكون عدم إطاعتهم فى الشرك بالله واجبا الأكبر .

« وان جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فانيثكم بما كنتم تعملون » .

(لقمان : ١٥)

وبعد التوصية بالوالدين ، وبيان طريقة المعاملة الواجبة ازاءهما فى كل الحالات ، ينتقل لقمان الحكيم فيتحدث عن مقدرة الله التى تحيط بكل شىء ..

« يابنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير » .

(لقمان : ١٦)

ثم يذكر لقمان ابنه بواجبه نحو الله والمجتمع :
« يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر وإصبر على ما اصابك إن ذلك من عزم الأمور » .

(لقمان : ١٧)

ونراه بعد ذلك يعطى ابنه القاعدة الذهبية للفضيلة وحسن السلوك وهو اتباع « الوسط العدل » وهذا هو أساس فلسفة لقمان كما هو أساس فلسفة أرسطو والاسلام .. ان لقمان ينصحه بما معناه : كن معتدلا فى كل شىء . لاتسرع الخطى ولا تكن بطيئا جامدا ، لاتكن ثرثارا ولا عيبيا صموتا ، لاتكن عالى الصوت أو منخفضه على نحو لا يسمع ، ولا تكن متكبرا على الناس بل كن متواضعا بسيطا :

« ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا
ان الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك
واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت
الحمير » .

(لقمان . ١٨ - ١٩)

وهذا المعنى يتكرر مرة أخرى في سورة الاسراء :
« ولا تمش في الأرض مرحا انك لن تحرق الأرض
ولن تبلغ الجبال طولا » .

(الاسراء ٣٧)

واعود الآن إلى حكيمنا المصرى القديم بتاح حتب ، فاتساءل :
هل هناك وجه للتشابه بين تعاليمه وعظات لقمان الحكيم لابنه كما
وردت في القرآن الكريم ؟
إن أول مظاهر هذا التشابه ان الاثنين يوجهان نصائحهما إلى
ابنهما ، إذ يحدثنا بتاح حتب في مقدمة برديته عن السبب الذى دعاه
لوضع هذه التعاليم ، فيذكر انه كان وزيرا للملك اسيى (ملك
تاريخى من ملوك الاسرة الخامسة) وانه شعر بتقدمه فى السن ووقع
الشيخوخة عليه فطلب من الملك أن يسمح له بان يعلم ابنه حكيمته ،
فسمح له الملك بذلك وقال له :

« علمه الحديث

كى يكون مثالا لأبناء العظماء

وتكون الطاعة رائده

ويتحلى بالفطنة

فليس هناك من يتعلم من تلقاء نفسه ،

والتشابه الثانى بين الحكيم بتاح حتب ولقمان الحكيم هو
الاشتهار بطول العمر ، فالسلف ان اختلفوا كثيرا فى أمر لقمان

الحكيم ولا يعرفون عن حياته سوى النذر اليسير إلا أنهم يجمعون على شيء واحد هو وصفه بطول العمر ، فكان يلقب « بالمعمر » ومن هنا جاء الخلط بينه وبين لقمان بن عاد الذي تقول الأساطير العربية انه طلب من الله أن يعمر طويلاً فاعطاه ما طلب وعاش عمر سبعة نصور . اما بقا حنط فيكفى لنعرف إلى أى سن مرذوله عاش أن نستمع اليه وهو يقول :

« لقد حلت بى الشيخوخة ، وبدا خرفها ، وامتلأت الاعضاء بالآلم ، واضحت القوة هزآلا ، وصار الفم صامتا ، وغارت العينان ، وصمت الأذان ، واضحى القلب كثير النسيان ، ان العظام لتتآلم ، والانف لا يتنفس . وصارت الحركة مؤلمة . وصار الطيب خبيثاً . وكل طعم قد وى .. حقا إن تقدم السن يجعل حال المرء سيئاً فى كل شيء »

(ترجمة سليم حسن مع بعض التصرف)

غير أن أهم تشابه يشترك فيه الحكيمان هو تأكيدهما على انتهاج فضيلة التواضع وعدم الصلف والتكبر على الناس فالقرآن الكريم يقول على لسان لقمان :

« ولا تصغر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً
إن الله لا يحب كل مختال فخور » .

ويقول بقا حنط لابنه :

« لا تكونن متكبرا بسبب معرفتك ولا تكونن منتفخ الأوداج لأنك رجل عالم . شاور العاقل والجاهل لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول اليها ، وليس هناك انسان مسيطر تماما على فنه »
بل تكاد تكون عبارة التشبيه المستخدمة فى تصوير الكبر والغرور واحدة .. « ولا تصغر خدك للناس » و « ولا تكونن منتفخ الأوداج » .

والتوصية بالوالدين فى النص القرآنى يقابلها تأكيد بتاح حنط على اطاعة الوالد

يقول القرآن الكريم « ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير » .
ويحث بتاح حتب على اطاعة الوالد قائلا :
« ان الاستماع مفيد للابن الذي يصغى . أجمل بالابن-الذى يصغى عندما يتحدث اليه والده » .

واذا كان نص بتاح حتب لا يذكر شيئا عن الأم بالتحديد ، إلا انه يركز كثيرا على الأسرة بصفة عامة ، وعلى حسن معاملة الزوجة بصفة خاصة ، وإذا كانت الزوجة في الفكر المصرى القديم لها هذه المكانة فحسن معاملة الأم الزم وأوجب .

يقول بتاح حتب :

« إذا أردت أن تكون رجلا ناجحا اسس لنفسك بيتا واتخذ لك زوجة تكون سيدة قلبك . اشبع جوفها ، واستر ظهرها واعلم أن الدهان (العطور) علاج أعضائها . اجعل قلبها مرحا مادمت حيا ، فهي حقل مثمر لسيدته » .

وهذا التشبيه الأخير ، حقل مثمر لسيدته « ورد في القرآن الكريم بعد ذلك بثلاثين قرنا في قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم » (البقرة : ٢٢٢) فإذا كان القرآن الكريم يعيد تأكيد بعض نصوص الحكمة المصرية القديمة على هذا النحو فلماذا نستبعد أن يشير الى حكيم مصرى صالح هو بتا حتب تقوم شواهد قوية على أنه دون غيره الأكثر قرباً إلى منطق لقمان الحكيم ؟

إذا صح هذا الاستنتاج نكون بصدد قرينة قرآنية عظيمة على مدى الأثر العميق للحكمة المصرية القديمة في التراث الإنسانى اللاحق ، وهي حكمة أرضية أيدتها وأكدتها حكمة السماء .

وحكم بتا حتب الذى عاش منذ أكثر من ٤٥ قرنا وله مقبرة معروفة في جبانة سقارة ، تذهلنا بتنوعها ، ورهافة حسها الاجتماعى ، والنزاهة الجاد بقواعد حسن السلوك بالرغم من

نغمتها المحافظة ، فهي ترسم الطريق أمام شاب يراد له أن يكون
عضوا صالحا في أسرته ومجتمعه ، ناجحا في حياته وعمله ، مطيعا
لرؤسائه ووالديه ؛ مهذبا في عاداته ، مسيطرا على نزواته ، وأن
يكون متواضعا ، محبا للعلم والحكمة ، ثابت الجنان ، عادلا
صادقا ، بعيدا عن مواطن الشبهات ، فهذه الصفات الصادقة أعز من
الثروة وأبقى منها ، أو كما يقول بتاح حطب : « أن المصائب قد
تذهب بالثروة ، ولكن الصدق لا يذهب بل يمكث ويبقى » .

★ ★ ★

امنموبى .. نبى مصرى قديم

ومما له دلالة بالغة أن بتاح حتب لا يذكر اسم أى اله مصرى قديم من الآلهة المعروفة ، وإنما يقتصر على ذكر كلمة « الاله » ، على نحو مجرد .

ونفس هذه الملاحظة نجدها أيضا فى أقوال حكيم آخر عاش فى عصر الدولة الحديثة هو « امنموبى » وقد وجدت تعاليم امنموبى مكتوبة على بردية محفوظة الآن فى المتحف البريطانى ، والمعتقد أن تاريخ هذه الوثيقة ينحصر فيما بين الاسرة الحادية والعشرين والثانية والعشرين ، وتنقسم هذه الحكم إلى ثلاثين فصلا تتناول شتى علاقات الانسان ونشاطاته .

وبالرغم من أن تعاليم امنموبى ترد فيها أسماء بعض الآلهة المعروفة إلا أن العين الفاحصة - على حد قول المرجوم سليم حسن - ترى أن « هناك قوة أخرى عظيمة خفية وراء تلك الاسماء الرمزية وهى الله العلى العظيم الذى لا إله غيره . إذ الواقع اننا نجد خلفا لاسماء الآلهة التى جاء ذكرها فى التعاليم مثل « تحوت » و « خنوم » و « رتنوب » وغيرها أن امنموبى يذكر بصفة خاصة اسم الله أو الاله ، وهذا يطابق تماما ما جاء فى الدين الاسلامى بتركيزه على الوحدانية مما يدل على أن امنموبى كان لا يعتقد فى التعددية وإنما لا يؤمن إلا باله واحد ، فلم ترد فى أقواله مطلقا كلمة « الآلهة » وإنما فقط « الاله » لذلك - كما يقول سليم حسن - لا غرابة إذا قلنا أن ديانة امنموبى فى أصلها ديانة توحيد .

وقد لاحظ كثير من علماء الآثار والأديان أن تعاليم امنموبى قد نقلت بنصها تقريبا إلى سفر الأمثال فى العهد القديم ، ويفرد سليم حسن وغيره من العلماء الغربيين ومنهم برستيد فى كتابه « فجر الضمير » صفحات كثيرة للمقارنة والمقابلة بين ما جاء فى هذين

الكتابين تدل على أن تعاليم الحكيم المصرى قد ترجمت لفظا ومعنى إلى السفر العبرى ، علما بأن تعاليم امنموبى هى الأسبق بالتاكيد من الناحية الزمنية .

ولا اعتقد أننا نتجاوز جادة الصواب اذا قلنا أن امنموبى وربما غيره من الحكماء المصريين كانوا أنبياء مرسلين من الله تعالى لهداية الشعب المصرى وغيره من شعوب العالم القديم مصداقا لقوله تعالى « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما » .

(النساء : ١٦٤ - ١٦٥)

وعلى أية حال فقد كانت تعاليم الحكماء المصريين مثلا يحتذى لأنبياء بنى اسرائيل الذين يعزى اليهم الغربيون وضع أسس الفضائل ومخافة الله ، والحقيقة أن أسانذتهم فى ذلك هم المصريون (راجع أيضا المقارنة بين نشيد اخناتون ومزامير داود) فقد كان المصريون أساتذة لكافة الشعوب القديمة التى اغترفت من حكمتهم وعلمهم وحضارتهم الشيء الكثير .

★ ★ ★

من حكماء وادى النيل

والى جانب من سبقت الاشارة اليهم فقد أبقى الزمن على ذكر كثيرين من الحكماء الآخرين الذين عاشوا فى وادى النيل ، لعل من أشهرهم الحكيم « ايبور » الذى شهد الثورة الاجتماعية الدائمة التى أعقبت سقوط الدولة القديمة ، ووصفها وصفا بليغا ، وزميله « نفرروهو » صاحب النبوءات عن تحسن الأحوال وسيادة النظام والعدل ، وانشودة « عازف القيثارة » التى تدعو الناس إلى التمتع بمباهج الحياة قبل أن يحين الأجل المحتوم .

ولدينا من عصر الدولة القديمة الحكيم « كاجيمنى » وقد وصل إلينا جزء صغير من تعاليمه محفوظ فى « بردية باريس » وفيها يحث على التواضع والاستقامة والحذر من الكلام غير المسئول ، كما يتحدث عن آداب المائدة وما يجب أن يتحلى به الإنسان من التعفف وضبط النفس وهو يؤاكل الآخرين .

وهناك التعاليم الملقنة للملك مريكارع (من أبيه على ما يبدو) وقد عاش فى بداية الصحوة التى أعقبت عصر الاضمحلال الأول ، وفيها يعده أبوه لتقليد مهام الحكم فينصحه بأن يكون قوى البأس ، وأن يلتزم بالصدق والعدل بين الرعية ، ويعطيه نصائح وتعاليم دينية واجتماعية وسياسية ثمينة ، وهل هناك أثنى أو أعمق من نصيحة تقول : « فضيلة الرجل المستقيم أحب (عند الله من ثور يقدمه صانع الأثام » ؟

ولدينا من الدولة الوسطى وصايا امنمحات الأول لابنه سنوسرت وهى وصايا سياسية فى المحل الأول تصلح كدستور يجب أن يتحلى به الحاكم العادل القوى الشكيمة ، وتعاليم خيتى لابنه بيبى التى تحضه على التعليم والثقافة وتبين فضل قراءة الكتب ، وتعاليم سحتب - أب - رع التى يحض فيها على حب ملك البلاد وخدمته

والاخلاص له كوسيلة للنهوض بالبلاد وتحقيق الوحدة المركزية والقضاء على النزعات الانفصالية والتشردم الاقطاعى .
اما الدولة الحديثة فلدينا منها نصائح « أنى » لابنه وهى تحض على عظيم الفضائل والخلال ، ولاتكاد تجد مجالا إلا وطرقته سواء فى العلاقات الاسرية أو العبادة أو دخول المنازل أو الابتعاد عن مواطن الشبهات بتجنب الخمر والنساء ، أو البر بالوالدين ، أو عدم الاغترار بالقوة والمال أو معاملة الزوجة والرؤساء .
وجميع هذه التعاليم الثمينة مترجمة ومشروحة فى الجزء الاول من كتاب « الأدب المصرى القديم » للمرحوم سليم حسن فليرجع اليها من يشاء الاستزادة .

★ ★ ★

معان باقية

وانه لما يدعو الى الدهشة والاعجاب أن نجد بعض الحكم المصرية القديمة باقية بمعناها وأحيانا بالفاظها في امثلتنا الشعبية المعاصرة .

فمثلا نجد أون شيشونقى يقول : « ليس هناك من يخدع الناس ولا يكون مخدوعا هو نفسه ، وليس هناك من يسير معوجا ومع ذلك يستمر ويزدهر » اليس ذلك هو نفس المثل الشائع « من حفر حفرة لأخيه وقع فيها » ؟

ويقول أنى « إذا كنت تسير على طريق تصنعه بيدك كل يوم فانك ستصل حتما إلى المكان الذى ترغب فيه » وهذا يشبه تماما قولنا « من سار على الدرب وصل » !

ومن التعاليم الموجهة إلى مريكارع : « ما يقوله الانسان شيء وما يفعله الرب شيء آخر » وهى تعادل تماما قولنا « العبد في التفكير والرب في التدبير » .

ويقول أنى « ان دمار الانسان يكمن في لسانه ، فحاول ان لاتضر نفسك » وكذلك يقول أون شيشونقى « الخرس افضل من اللسان المتسرع ، اليس ذلك نفس مانقصده بقولنا « لسانك حصانك إن صنته صانك وإن خنته خانك » ؟

ويقول أون شيشونقى : « حية تاكل .. لاسم فيها » ونحن نقول « اطعم الفم .. تستحى العين » ..

وغير ذلك من المقابلات كثير ان كانت تدل على شيء فعلى أن طبيعة هذا الشعب واحدة .. انما الاستمرارية الحضارية ..

★ ★ ★

من أقوالهم الحكيمة

• في العُض على العمل :

« كن مجتهدا في كل وقت
افعل أكثر مما هو مطلوب منك
لاتضع وقتا هباء اذا كان في امكانك ان تعمل
مكروه ذلك الذى يسىء استخدام وقته
ان العمل يأتى بالثروة
والثروة لاتدوم اذا هجر العمل »
بتاح حطب

• في القناعة

« لاتطمع فيما يملك غيرك
دع اخاك يشاركك ثروتك
ولاتتخطى حدود جارك
ولاتبن منزلا على أرض زراعية
اون شيشونقى
لاتكرس قلبك في سبيل جمع الثروة

فلا أحد يامن القضاء والقدر
وكل انسان له اجله المحدود «
امنوبى

• النهى عن الطبع :

إذا أردت أن يكون سلوكك حسنا ، وان تحرر نفسك من كل
الشور ، فاحذر أن تشتهى ما يملكه الغير ، انه مرض لا شفاء منه ،
يجعل الود مستحيلا ، ويحيل الصديق عدوا ، ويقضى على الثقة بين
الأصدقاء ، ويفسد ما بين المرء وامه وأبيه ، وكذلك اخوته من امه ،
ويفرق بين الرجل وزوجته ، انه حزمة تضم كل أنواع الشرور ،
وحقيقية ملأى بكل ما يستحق الخزي والتأنيب .. ان الذى يشتهى
ملك غيره لا يكون له قبر «

بتاح حتب

• دم الفسور :

« لاتغتربقوتك بين أقرانك ، وخذ الحذر دائما من خصومك
فالانسان لايعرف مايمكن ان يحدث له اذا قرر الله أن يعاقبه «
كاجمينى

« لاتغتربعلمك

ناقش الجاهل كما تناقش العالم

فالحكمة قد توجد فى أى مكان

حتى بين النساء الجالسات أمام أحجار الطواحين

فلا احد يبلغ الكمال فى فنه

بتاح حتب

• السيطرة على اللسان

« فكر كثيرا ولكن احتفظ بفمك مغلقا «

بتاح حتب

« ان دمار الانسان يكمن في لسانه فحاول الا تضر بنفسك ،
انى

« الخرس افضل من اللسان المتسرع »

أون شيشونقى

« لا تنطق بآية كلمة شريرة امام أى زائر ، فإن كلمة تقال يوما
وانت تثرثر قد تدمر منزلك » .

انى

« ان قلب الانسان يشبه مخزنا للغلال مليئا بالاجابات من كل
نوع ، اختر الردود الطيبة منها وتحدث بها على لسانك ، واحتفظ
بالردود السيئة في داخلك » .

انى

« كن ماهرا في الحديث
من أجل ان تفوز وتنتصر
إن قوة الانسان تكمن في لسانه
والحديث أقوى من أى قتال ،
من تعاليم مريكارع

• فى النصيحة : .

« لاتنصح الأحق حتى لا يكرهك
ولاتنصح من لا يستمع اليك
لاتستشر الرجل الكبير فى شان صغير
ولاتستشر الرجل الصغير فى شان كبير
ولاتستهزىء بآية نصيحة » .

أون شيشونقى

★ ★ ★

دستور العلاقات العامة

هذه نماذج قليلة متفرقة من حكمة قدماء المصريين ، تدل على العمق والصفاء النفسى والتزام جادة الصواب . والحقيقة ان الحكمة المصرية القديمة لم تكن تستهدف تحقيق النجاح الدنيوى باى ثمن ، بل انها تحذر على وجه التحديد من ذلك النجاح الزائف . انها على نقيض تام من المبدأ الميكيافيللى المعروف « الغاية تبرر الوسيلة » فهى تهتم أساس ببقاء الوسائل ، وعندئذ فإن الغايات سوف تهتم بنفسها .

الحكمة المصرية تحض على الفضائل وكريم الأخلاق والخلال ، وتدعو الى السيطرة على نزعات النفس والتحل بالصفات الحسنة . ان هدفها صياغة الرجل الصادق المستقيم ، وهى تنظر الى الانسان فى حده الأدنى ، أى باعتباره انسانا بسيطا مجردا دون ادنى اعتبار لمكانته الاجتماعية أو درجة ثرائه أو جنسه ذكرا أم أنثى . فالجميع سواء أمام القانون الأخلاقى ولا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى والاستقامة وحسن الخلق ، وهى من هذه الناحية تقترب كثيرا من الاسلام .

ولم تكن الحكمة المصرية القديمة ترقا اجتماعيا ، أو حديث صالونات ، ولم يكن الحكماء المصريون يعيشون فى برج عاجى بمعزل عن الشعب ، وانما كانوا بمثابة ضمير للأمة ، وكانت أقوالهم تنتشر بين الناس وتصبح دستورا للعلاقات الانسانية والسلوك العام من يخرج عليه يفقد المصداقية والاحترام .

ومما يدل على مدى انتشار أقوال الحكماء بين الناس ان معظم نصوص هذه الحكمة وردت الينا فى صورة تمارين يقوم بها التلاميذ للتدريب على البلاغة أو قواعد اللغة أو تحسين الخط . ومعنى ذلك ان النشء كان يتمرس بها ويتشرب رحيقها منذ نعومة اظفاره ويشب بالتالى جيلا قويا ، صادقا ، متين الأخلاق .

وفي اعتقادي أن أقوال الحكماء المصريين القدامى لم تكن تقل
تأثيرا في نفوس الناس عن الدين ، بل لعلها كانت أعمق تأثيرا
وأوسع انتشارا من نظريات الكهنة وخزعاتهم وتصوراتهم
المعقدة ، فالأسرار الدينية المقدسة كانت حكرة على طبقة الكهنة
الذين يحتفظون بسجلاتهم محبوسة في المعابد ، أما أقوال الحكماء
فكانت تنتشر بين الناس على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم ومستواهم
الفكري ، وتخلق بالتالي ضميرا اجتماعيا أو رأيا عاما هو فيما اعتقد
سر خلود مصر وبقاء حضارتها هذه الآلاف الكثيرة من السنين .
ولانتزال رواسب هذه الحكمة المصرية القديمة باقية فينا نحن
المصريين المحدثين ..



تأمل .. لاشيء يفوق قدر الكتب !

فى المتحف البريطانى يوجد حجر أثرى مستدير
له قصة مثيرة حكاها العالم الشهير جيمس
برستيد فى كتابه القيم « فجر الضمير » ..
هذا الحجر يحمل نقوشا هيروغليفية ممحاة
جزئيا خاصة فى منطقة الوسط ، والسبب فى ذلك
أن الفلاحين المصريين المحدثين كانوا يستخدمونه
كحجر طاحونة لطحن الغلال ، ولذا فقد ثقبوه عند المركز وثبتوا
فوقه حجرا مستديرا علويا ، وظلوا ردحا من الزمن يطحنون بينهما
الحبوب حتى ازالوا منطقة القلب من نقوشه الهيروغليفية دون أن
يفطنوا بالطبع الى جسارة الخسارة التى احدثوها ..
وعلى أية حال ، فقد انقذ علماء الآثار الحجر فى نهاية الامر ونقلوه
إلى المتحف البريطانى ، حيث عكف على دراسة نصوصه لفيف من
أفضل علماء الآثار .

عرف العلماء شيئا عن أصل هذا الحجر من الكتابة الهيروغليفية
الباقية على قمته ، إذ نجد اسم الفرعون الأثيوبي « شباكا » الذى
حكم مصر فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وتحت هذا الاسم نقرأ أن
« جلالتة (يعنى نفسه) أمر بإعادة نقل هذه الكتابة من بيت أبيه
بتاح ، لأن جلالتة وجد أن هذا العمل الذى تركه الأسلاف قد نخرته
الديدان وأصبح غير قابل للقراءة من البداية إلى النهاية فأمر جلالتة
بإعادة كتابته من جديد (على هذا الحجر) حتى يكون أجمل مما كان
عليه من قبل » .

نفهم من ذلك أنه فى القرن الثامن قبل الميلاد اهتم ذلك الملك
الأثيوبي النقي بحفظ عمل فكرى قديم « تركه الأسلاف » وهو
بلا شك كان مكتوبا على وثيقة من ورق البردى وإلا ماكان قد « أكلته

الديدان « ومن أجل أن يضمن شبাকা أن يعيش هذا العمل إلى الأبد فقد أمر بنقله إلى الحجر ، ولم يكن شبাকা بالطبع يتوقع أن يستخدم هذا الحجر الصلد كطاحونة على أيدي أحفاد مصر بعد ذلك بعشرات القرون ، وهو أمر لم يكن أرجم كثيرا من الديدان ..

ولو كانت عملية الطحن قد استمرت عدة سنوات أخرى لمسحت من الوجود نصا ذا أهمية فريدة في تاريخ الفكر الانساني ، أو على حد تعبير بريستيد « أقدم دراما في العالم وأول مناقشة فلسفية معروفة في التاريخ » .

لقد تبين أن هذا النص منقول عن نص آخر أقدم منه بالفين وخمسمائة عام ! وهي حقيقة ربما لم يكن يعلمها كتبة « شبাকা » أنفسهم الذين كلّفوا بنقل النص القديم كما هو ، فرسموا كلماته رسما دون أن يدركوا معناها بوضوح لأن لغتها قديمة بالنسبة لهم ، تماما كما لا يفهم ناسخ عربي حديث نصا جاهليا يقوم بنقله ، ولكن علماء الآثار المحدثين عرفوا الحقيقة استنادا إلى قواعد اللغة التي كتب بها النص ، وهي قواعد ترجع إلى مطلع العصر التاريخي ، أو بالتحديد إلى الأسرة الأولى التي أسسها مينا موحد القطرين ، أي حوالي عام ٣٢٠٠ ق . م . والفكر الذي يعبر عنه النص كان موجودا قبل ذلك بالتأكيد ، أي أنه يرجع إلى عصر « الاتحاد الأول » أو ما قبل الأسرات ، مما يجعل هذه الوثيقة من حيث محتواها « أقدم وثيقة فكرية في تاريخ الجنس البشري تناهت إلينا في شكل مكتوب » على حد تعبير بريستيد أيضا .

فماذا يقول هذا النص العتيق الفريد ؟

أن هذا النص عبارة عن محاورة فلسفية أو « دراما » يلعب فيها الآلهة بتاح الآلهة منف دور رع الآلهة الشمس كآلهة أعلى لمصر كلها مما يدل على تفوق منف وسيادتها نتيجة فيما يبدو لانتصار مينا وانتقاله من بلده الإقليمية « نئي » إلى منف الذي أعاد انشاءها وجعلها عاصمة

لكل البلاد ، ولكن صياغة هذه « الدراما المنفية » وفلسفتها تدلان على أنها من وضع كهنة رع في عين شمس « أون » وهذا ما يفسر ظهور بتاح في دور رع ، ويدل في نفس الوقت على امتزاج القوة السياسية التي يمثلها بتاح بالقوة الدينية التي يمثلها رع . ويشير النص إلى تحول تام وخطير في طبيعة اله الشمس ، إذ نراه هنا ينزل من عليائه ليكون حكما في شؤون البشر ، فهو يحكم الحياة البشرية طبقا للتمييز بين الخير والشر ، فالذى يفعل الخير يثيبه الاله بالحياة ، والذى يفعل الشر يكون جزاؤه الموت . يقول برستيد انه لأمر يدعو للدهشة الشديدة أن نجد مثل هذه الأفكار وقد أشرقت في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد .

هذه هي مصر التي عرفت الفضائل ومعايير السلوك الانساني منذ ستة آلاف عام ، أو هذا هو « فجر الضمير » .

ولانتوقف مفاجات النص عند هذا الحد ، إذ بالرغم مما أصابه من تلف وتشويه خاصة في منطقة الوسط ، فقد تبين أنه يتحدث عن عملية خلق الكون ، وكيف أنها حدثت بكلمة من بتاح الذى هو « قلب » و « لسان » كل الآلهة ، إذ أن بتاح نطق باسماء كل الأشياء .. فوجدت من العدم . واللسان ينطق بما في القلب . وهكذا تكون كل الموجودات قد جاءت نتيجة للكلمة المقدسة التي نطقها لسان بتاح تعبيرا عن الفكر الذى في قلبه .

وهذه فكرة خطيرة عظيمة الأهمية في تاريخ الفكر الدينى كله ، بل لعلها الفكرة الأساسية الأولى التي قامت عليها الأديان ، فهنا نتعرف لأول مرة على نظرية « الكلمة الخالقة » التي جاءت بها الأديان السماوية فيما بعد ، ففي العهد القديم « في البدء كان الكلمة » وفي القرآن الكريم « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون »

(يس . ٨٢)

انها فكرة هائلة دون ريب ، وأن تتكشف للادراك البشرى في ذلك الزمن الموعول في القدم ، خلال الألف الرابع قبل الميلاد ، فانما تدل على مدى التضج الذى بلغه الفكر الدينى المصرى منذ بداية التاريخ . بل فيما قبل التاريخ . ولعل هذه الأهمية القصوى للنص هى ما أبقته حيا على طول العصور الفرعونية إلى أن أمر الملك « شبلكا » بنقله على الحجر خوفا عليه من الانقراض . ثم جاء المصريون المحدثون فأخذوا هذا الحجر الثمين وصنعوا منه رحلية .. وهو نفس ما فعلناه عموما بتاريخنا وحضارتنا قبل مرحلة الوعى الحديث !

مكانة الكتاب والمؤلفين

ليس هدفى من إبراز قصة هذا الحجر الفريد الاستطراد فى الحديث عن نصه الموعول فى القدم وفحواه الفكرى والدينى ، وإنما التدليل فقط على مدى الاحترام الذى كان ينظر به القدماء إلى الكتابات والمؤلفات التى توارثوها عن أجدادهم ، فقد عاشت هذه « الدراما المنفية » - التى ربما كانت أول مؤلف مكتوب فى تاريخ البشر - من منتصف الألف الرابع قبل الميلاد حتى الألف الأول ق . م . فى هيئة مرنيات ربما نسخت مرارا وتكرارا إلى أن اندك « شبلكا » آخر هذه البرديات وقد كد يصيبها التلف ، فامر بنقلها على الحجر .. وقد وصلت إلينا كثير من الكتابات المصرية القديمة سواء فى الدين أو الحكمة أو القصص أو الأشعار أو الطب أو الرياضة بنفس الطريقة فكانت تنسخ مرارا وتكرارا عبر القرون السحيقة ، وربما تصبح تعلمين يتعمن الطلبة على كتابتها . وهكذا كانت الثقافة المصرية محفوظة دائما فى السجلات ، ولم تكن تنتقل فحسب شفاهة شأن ما يحدث فى معظم الحضارات القديمة ، فالثقافة المصرية كانت ثقافة مكتوبة ، وكان ينظر إليها بأجل الاحترام . وليس هذا بغريب

على امة اجترعت الكتابة ونقلت البشرية الى مرحلة التاريخ المكتوب .

ولدينا بردية من عهد الرعامسة تعبر عن هذا الاجلال الرفيع الذى كان المصريون القدماء ينظرون به الى الكتب والمؤلفات . وتلك المكانة العالية التى كان يتمتع به المؤلفون والحكماء ، محورها أن الكتب أكثر خلودا من الأهرامات . وانها تضمن لأصحابها الذكر الحسن على مدى الدهر .

تقول البردية عن هؤلاء المؤلفين الحكماء (ترجمة سليم حسن مع بعض التصرف اللفظي) .

انهم لم يقيموا لأنفسهم أهراما من نحاس
ولا شواهد قبور من حديد
بل جعلوا من كتب الحكمة أرثهم الوحيد
كانت اضمالمات البردى كاهنهم المرتل
والواح الكتابة ابناءهم البررة
وكتب التعاليم أهراماتهم
والقلم ابنهم
والصفحات زوجاتهم

وتصف البردية كيف أن بعض الكتاب قد ملئوا منذ أمد طويل ،
وتحطمت قبورهم ومحيت من الوجود ، ومع ذلك فإن ذكرهم باق ،
وشهرتهم خالدة :

ان مقابرهم قد آلت إلى الدمار :
وشواهد قبورهم غلبها الأقدار
لقد تبدد كهنتها وانقرضوا
ولكن اسماءهم ظلت باقية
بسبب المؤلفات التى وضعوها
ويقدر ماهى عليه من الاتقان

يكتب لواضعيها الخلود والعرفان
ثم تَمْضى البردية فتقارن بين الكتب والوسائل المادية الأخرى
لتخليد الذكر ، وتنتهى المقارنة لصالح المؤلفات :

ان كتاباً واحداً

لأعظم قائدة من لوحة فى قبر

ومن جدران مقبرة حصينة

فالكُتب هى مقاصير وأهرام

فى قلوب الناس

هذه هى نظرة الحضارة المصرية إلى الكتب ، وهى الحضارة التى
تقدر الاهرامات والمقابر والمقاصير إلى أقصى حد ، ولكن هاهى تضع
الكتب والمؤلفات فوق ذلك جميعا ، وهذا تقدير لايدانيه أى تقدير

الرجل يموت

وتصبح جثته جيفة قذرة

ويصير كل ذريته ترابا

ولكن الكتب (التى يؤلفها) تجعله فى كل فم

ان كتابا واحدا

لأكثر نفعا من بيت متين الأساس

ومن قبر فى الغرب

وأجمل من قصر منيف

ومن نصب فى معبد

وتَمْضى البردية فتذكر أسماء بعض الحكماء القدامى الذين لم يعد
هناك من يدانيهم ، ومنهم حرددف ، وإيمحتب ، ونفري ، وخيتى ،
وبتاح أم تحوتى ، وخع خبر رع سنب ، وبتاح حتب ، وكارس ،
وتقول عنهم :

انهم قد اختفوا

ولكن سحرهم شمل كل الناس

الذين قراوا تعاليمهم
لقد ذهبوا ومحي رسمهم
ولكن كتاباتهم جعلتهم مذكورين
ومن النادر أن نقرأ مثل هذا التوقير للكلمة المكتوبة في أدبيات أمة
أمة من الأمم قديما أو حديثا .. إنها حضارة الثقافة ، وثقافة
الحضارة

تحت .. إله الثقافة

لقد كانت الثقافة بكل فروعها النظرية والعملية هي الأساس الذي
قامت عليه الحضارة المصرية برمتها ، فهذه الحضارة لم تقم على
القوة الباطشة ، ولم تقم على الثراء العريض ، ولم تقم على النشاط
التجاري والبحري ، شأن معظم الحضارات الأخرى ، وإنما قامت
على أساس واحد هو الثقافة .

لذلك ليس غريبا أن يتمتع « تحت » ، إله المعرفة والثقافة بمكانة
فريدة وجلية في « البانيثون » المصري . ففي بعض نصوص الأهرام
يصور تحت أحيانا باعتباره أكبر أبناء رع ، وأحيانا ابن جب
(الأرض) ونوٹ (السماء) وأخ لايزيس وست ونفتيس .
ولكن المعتاد عنه والشائع أنه لايمت بصلة إلى الأسرة الأوزيرية
وأنه كان فقط وزيرا لأوزيريس وكاتب مملكته المقدسة .

وتحت هو رب الحكمة والمعرفة الكاملة ، وهو مخترع كل العلوم
والفنون والآداب والرياضة وعلم المساحة والهندسة والفلك والتنبؤ
والسحر والطب والجراحة والموسيقى الوترية والهوائية والرسم
والقصص والشعر . وفوق ذلك هو مخترع فن الكتابة الذي يدونه
ملكان للبشرية أن تتذكر تعاليمه وتحفظ باكتشافاته ومخترعاته .
ولذلك اسمى « سيد الكلمات المقدسة » ، وهو رب البيان وأول
السحرة ، ويطلق عليه لقب « الأكبر » ، وتلاميذه يزعمون أن لديهم

الكتب التى وضعها فى السحر وانهم حلوها وفكوا رموزها ولذا فانهم تعلموا منه « الصيغ التى تسيطر على قوى الطبيعة وتخضع كل شىء حتى الالهة لارادتهم » وبسبب هذه القوة الخارقة التى ينسبها اليه أتباعه جاء اسمه « تحوت » ومعناها بالمصرية القديم « العظيم جدا ثلاث مرات » وترجمة الأغريق الى « هرمس ترسمجطس » أى هرمس المثلث العظمة .

وتحوت هو الذى يزن قلب الميت فى محكمة أوزيريس ويعلن بصوته الجهير « غير مذنب » ويسجل ذلك فى الواحه وهو الذى يتمتع بثقة كل الالهة لذلك اختاروه حكما بينهم وهو الذى حكم لصالح حورس ضد ست فى الأسطورة الخالدة

وتحوت يجلس مكان رع فى السماء عندما يغيب رع لانهارة المكرمين فى العالم السفلى ، ولذا فان تحوت ايضا هو القمر واسمه « إياح تى حوتى » وهو يعبر السماء فى سفينته الليلية ، وفى كل شهر يتعرض لهجمات الشياطين (اعداء النور والمعرفة) الذين يلتهمون اطرافه حتى يصير محاقا ثم يولد هلالا ويصبح بدرا ، وهكذا فان تحوت هو الذى يقيس الزمن وهو الذى يقسمه إلى شهور وسنوات وفصول ، وهو رب التاريخ ، والحفيظ على السجلات المقدسة ، والذى يسجل بدقة تعاقب الملوك ، وهو أيضا رسول الالهة وكاتبهم وسكرتيرهم ، فنقرأ على الآثار عبارة تتكرر كثيرا « تكلم رع . كتب تحوت » . وانظر إلى هذه المقابلة البديعة بين وظيفة تحوت كالة للمعرفة ووظيفته كاله القمر ، تجد أن الوظيفتين واحدة فى الواقع ، وهى نشر النور .

هكذا تصوّر أجدادنا نور المعرفة .. أنه يفعل فى العقول ما يفعله القمر فى ظلمة الليل البهيم . فجعلوا اله المعرفة واله القمر واحدا !

★ ★ ★

ليتنى أجعلك تحب الكتب أكثر مما تحب أمك

خصصت مجلة « هيستوريا » الفرنسية التاريخية عددا خاصة عن التعليم والثقافة ، كان من أبرز فصوله مقال بعنوان « التلميذ المصرى القديم أول تلميذ فى العالم » بقلم العاملة الأثرية الفرنسية الشهيرة كريستين نوبلكور . قالت فيه إن مصر هى التى اخترعت الكتابة والحساب والمدارس والتلمذة ، ومن يدري لو لم تكن مصر قد فعلت ذلك لربما اتخذ تاريخ البشرية مجرى آخر .

لقد عرفت مصر تقريبا كافة مراحل التعليم المعروفة حاليا ابتداء من الكتاتيب إلى الدراسات العليا .

عرفت الكتاتيب فى القرى وأحياء المدن الشعبية لتعليم مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، والمدارس الابتدائية الصغيرة « عت سار » والمدارس الملحقة بدواوين الحكومة لتخريج الكتبة والموظفين ، ودور الحياة أو المدارس الملحقة بالمعابد (برد عنخ) لتخريج الأطباء والكهنة ، ومدارس الأمراء فى القصور ، والجامعات فى أون (عين شمس) ومنف والأشمونين وطيبه . كما عرفت نظام المربين أو المعلمين الخصوصيين . وكانت الاناث يتعلمن أيضا كالذكور

وكان من أحب الألقاب لدى المصرى القديم أن يلقب « بالكاتب » ومن اكبر آمانياته أن يصنع لنفسه تمثالا يضعه فى مقبرته يمثله فى هيئة الكاتب المتربع وهو يكتب أو يقرأ بريدية فى حجره .. وكانوا يتصورون أن الاله أوزيريس رب العالم الآخر يغضب أشد الغضب اذا وفد على محكمته جاهل ، ويقول لمن جاء به « كيف » يأتى إلى برجل جاهل لايعرف كيف يعد أصابعه »

وحتى رمسيس الثانى سيد العالم والمتحكم فى الرقاب نراه فى بعض صوره فى هيئة الكاتب يحمل لوحة الكتابة بمحابرهما وأقلامهما لذا كان الآباء يحرصون أشد الحرص على تعليم أبنائهم وتحبيب العلم إلى قلوبهم ، وهناك بردية شهيرة تعرف باسم « تعاليم خيتى بن دواوف لابنه بيبى ، تحوى النصائح التى يوصى بها هذا الحكيم ابنه بيبى وهما فى طريقهما على سفينة بالنهر للاحاق الابن بمدرسة لولاد الحكام .

يقول خيتى لابنه (ترجمة سليم حسن مع بعض التصرف)

« عليك أن توجه قلبك لقراءة الكتب

تأمل ! لاشئ يفوق قدر الكتب

ليتنى أجعلك تحب الكتب أكثر من أمك

ليت فى مقدورى أن أظهر جمالها امام عينيك

ان الكتابة اعظم من أية حرفة ،

ثم يشرح خيتى فى وصف الحرف الأخرى وما بها من مشقة ومهانة مبينا فضل العلم عليها جميعا . فالنحاس « يقوم بعمله عند فوهة الآتون وأصابعه كجلد التمساح ورائحته أكثر كرها من البيض والسمك ، والخراط « ينال ممن الاعياء أكثر مما ينال ممن يفلح الأرض ، والبناء « يعمل فى الأحجار الصلبة وعندما ينتهى من عمله تكون ذراعه قد تكسرتا ويعود الى بيته مضنى « والحلاق « يخلق متأخرا حتى الغروب ويتجول من شارع إلى شارع باحثا عن زبون كالنحلة التى تكد لتاكل « والبائع المتجول « يسبح حتى الدلتا ليبيع سلعته والبعوض يلدغه ، وضارب الطوب « يقضى حياته بين المشية وملابسه تكون خشنة وهو يشتغل بيديه وقدميه « والبناء « ملابسه قدرة وهو انعس مما يمكن أن يتصور أحد فهو كقطعة حجر ، والبستاني « يحمل أثقالا وذراعه ورقبته تتألم تحتها والفلاح « حسابه مستمر إلى الأبد (أى مطالب دائما بتسديد

ديونه) وصوته أعلى من الطائر أبو (أى دائم الشكوى) والنساج
(داخل مصنعه) انعس من حال المرأة (أى لا يترك مقعده) فركبتاه
دائما فى بطنه ولا يمكنه أن يستنشيق الهواء .

ويستمر خيتى فى هذا التصوير الكاريكاتيرى البديع يصف
ملاعب مختلف المهن والحرف الأخرى فيتحدث عن صانع السهام ،
وناقل البريد ، والاسكافى ، والغسال ، وصائد العصافير ، وصائد
السمك ، وغيرهم . ثم ينتقل مرة أخرى إلى اطراء حرفة الكتابة
وتبيان فضلها ومحاسنها ، فيقول .

ان صاحبها هو الذى يصدر الأوامر

ان الكاتب هو رئيس نفسه (ليس له رئيس يأمره)

إذا عرف الانسان الكتب فأنها تفيد

ان يوما فى المدرسة مفيد لك

وما تعلمه فيه يبقى مثل الجبال

أما اذا تقاعس الابن ولم يبد نجابة فى التعلم فان والده يعنفه
أشد التعنيف ، وفى رسالة من أب يوبخ ابنه على اهماله فى الدرس
والتحصيل ، يقول :

« ان قلبى قد سئم اعطائك دروسا (أكثر مما اعطيتك) ان مثلك
عندى كحمار قد ضرب ولكنه عنيد (أى لا يؤثر فيه الضرب
ولا يعلمه شيئا) انك كعبد أسود يزمر وقد أحضر مع الجزية . ان
الحدادة توضع فى العش وجناحاها يوثقان (أى سوف أحبسك
وأوثقك لأنك لانتزيد عن حدادة) وانى لجاعلك حتما تلعب دور الرجال
أيها الولد الردىء . أرجو أن تفتن الى ذلك »

ثم يمضى الأب فيعاير ابنه بأن الحيوانات نفسها تتعلم ، وهو
لا يفيد فيه التعليم ، فيقول .

« ان الكابرى (حيوان أثيوپى) يدرّب على الرقص ، والخيول
تروض ، والحدادة تستأنس ، والصقر يشد جناحاه (أى يدرّب على
الصيد) .. فتأبر فى طلب العلم ولا تملن الكتابة »

تقدير المدرس

واذا كانت هذه هي أهمية التعليم لدى المصرى القديم والى هذا الحد يحرض عليه ، فلا غرابة أن يتمتع المدرس فى المجتمع باحترام وحب بالغين . وقد أورد سليم حسن فى كتابه عن « الأدب المصرى القديم » نماذج من الرسائل التى يبعث بها أشخاص الى معلمهم القدامى تفيض حبا وتقديرا وامينات عذبة .
فنجد أحدهم يقول فى رسالة إلى معلمه :

« لقد ربيتنى صغيرا حينما كنت معك ، وضربت ظهرى ، لذلك دخل تعليمك أذننى .. ليتنى أستطيع أن أقيم لك قصرا جديدا على أرض مدينتك مفروشا بالأشجار على كل جانب من جوانبه ، وحظائره ترزجر بالماشية ، ومخازنه مفعمة بالقمح والشعير والفول والعدس والكتان والخضر والتفاح الذى يكال بالسالل » .

وفى رسالة أخرى إلى مدرس يقول مرسلها :

« ليت أمون يمنحك السرور ، ويهبك عمرا طويلا حسنا حتى تحيا حياة سعيدة ، وتبلغ العلا ، وتكون فى صحة دائمة ، أعضاؤك ناعية ، وعينك تبصران على بعد ويمضى الراسل فى تمنياته لمدرسه ،
ليقول :

« (أتمنى) أن ترتدى الثيل الجميل ، وتركب الجياد الأصيلة ، وبيك سوط ذهبى ، والسرّج من صنع سوريا ، والعبيد تجزى أمامك وتزال كل ماتريد (أتمنى) أن تنزل إلى سفينتك المصنوعة من خشب الأرز ، والمجهزة بالمجلايف ، وتصل إلى قصرِكَ الجميل الذى بنيتَه لنفسك »

وهذه الأمنيات تذكرنا بالحديث النبوى الشريف « من علمنى حرفاً صرت له عبداً » ..

وكانت مهمة التربية هى التوجيه والترغيب لا القصر والارغام

يقول معلم لتلميذه ، لقد جعلت قلبك يعرف الصواب ، ولك إن تفعل
بعد ذلك مقراء صوابا في نظرك .

هذه هي مصر العظيمة ، وهذا هو تقديرها للعلم والتعليم ،
والثقافة والفنون ، والكتابة والكتاب ، فليس صدفة إذن ما بلغته
من رفعة وعلو ، وما صنعت من منجزات ومعجزات تحار فيها
الأكلب ، وما عاشته من آلاف مؤلفة من السنين ، وكانت في معظم
مراحل تاريخها منارة للعلم والعرفان تفيض بنورها على كل أنحاء
العالم القديم ، فيقصد إليها الطلبة من شتى الأنحاء يطلبون فيها
العلم والمعرفة فلا تبخل على أحد بما يريد . وفي أواخر عصورها
الفرعونية بالذات كن يتوافد عليها الدارسون الأغريق يعيون من
علومها عبا ، ومنهم فلاسفة كبار من أمثال صولون وفيثاغورس
وانكسا حوراس تتلمذوا على أيدي الكهنة المصريين ، ثم عادوا إلى
بلادهم اليونانية ونشروا هذه العلوم على أنها من بنات أفكارهم
وقدح قرائحهم ، حتى لنجد المؤرخ الأغريقى هيردوت - في نوبة
غضب على مواطنيه - يحذرهم بأن في إمكانه أن يفضحهم واحدا
واحدا ويبين مسرقوه من علوم المصريين !

لقد تشربت التربة المصرية حب الثقافة والتعليم ، وظلت تحتفظ
بالرواسب الحضارية التي تشبعت بها عبر العصور ، وهذا هو سر
عطاء مصر الثقافي المستمر حتى في عصور الضعف والانحطاط وقد
كان الريف المصرى بالذات - بالرغم من فقره وتخلفه وقسوة الحياة
فيه - هو المستودع الهائل الذي يحتفظ بهذه الرواسب مما جعل لدى
الفلاحين المصريين استعدادا ثقافيا عاليا ، وأنه لما بلغت النظرة ان
معظم علمائنا ومثقفينا وفنانينا نشأوا في الريف أو ينتمون إلى
أصول ريفية مباشرة . وإن الشباب القروى - منذ أيام رفاعة
الطهطاوى حتى الآن - يمكنه أن يلتحق بأرقى معاهد العلم في
عواصم أوروبا وأمريكا ويتفوق على أقرانه من أبناء الحضارة الغربية
في شتى شروعات العلوم والفنون والآداب .

ومصر الآن هي العاصمة الثقافية لكل العالم العربي بلا منازع ،
ولن ينافسها في ذلك أى مكابر مهما أوتى من المال أو شهوة الزعامة ،
فلا يزال المدرس المصرى هو المدرس الأول في العالم العربى ،
والفنان المصرى هو الأكثر ذيوعا وانتشارا ، والثقافة المصرية هي
الأكثر رسوخا واقتدارا ، إلى جانب ذلك الجيش العرم من الأطباء
والمهندسين والقانونيين والاداريين والصناع الذين يساهمون في
التقدم العربى العام ..
فلنحرص على الثقافة ، فأنها رأسمال مصر الحقيقى ، ورصيد مصر
الباقى ، اذا فנית كل الأرضدة والرساميل ..



عندما اعتلى الشعب المرح

تعرضت مصر في أواخر أيام الأسرة السادسة
لثورة شعبية ساحقة ما حقة احتجاجا على سوء
الأحوال ، وتراكم الأثقال على هذا الشعب الصبور
الذى بنى على أكتافه العارية عشرات الأهرام
الشامخة فى الدولة القديمة دون أن يئن أو يمن ،
أو يأخذ جزاء أو شكورا ، ولعله كان راضيا
بخدمة « الاله الطيب » والمساهمة فى صرح خلوده اعتقادا منه بأن
هذا « الاله » أو الملك رضى أن ينزل من عليائه بين الآلهة ليعيش بين
رعاياه البشر يكفل لهم الحماية ويحقق الخير ، غير أنه مع سوء
الأحوال فى أواخر الدولة القديمة وتضاؤل سلطات الملك وظهور قوة
الأمراء الاقطاعيين وانتشار المظالم من كل نوع وسوء الحالة
الاقتصادية انهارت الأسس المتينة التى قامت عليها الدولة
المصرية ، وكان لانهيائها هذا الوقع الصاعق الذى تجلّى فى الثورة
الشعبية التى حدثت فى أواخر عهد الملك المسن بببى الثانى ثم
امتدت على نحو متناثر ومتقطع طول ما يعرف بعصر الانقطاع الأول
الذى استمر زهاء ١٥٠ عاما حتى قامت الأسرة الحادية عشرة التى
أعادت الأمور الى نصابها .

ففى عهد بببى الثانى الذى امتد به الأجل قرنا كاملا حكم فيه
٩٤ عاما متواصلة وهى أكبر مدة حكم فى تاريخ مصر والعالم أصيبت
أجهزة الحكومة المركزية بالشلل المطلق ، ووصلت الأحوال الى درجة
هائلة من السوء ، ولم يعد قادرا على تسيير دفة البلاد بعد أن أبلى فى
حياته الواحدة ثلاثة أجيال من الموظفين والمستشارين ، ويبدو أنه
عكف فى نهاية حياته منزويا فى قصره ، وحوله زمرة من أفراد

الحلشية الانتهازيين الذين كانوا يجربون عنه حقيقة ما وصلت اليه
الأحوال من السوء ، أو « يغذونه بالأكاذيب » على حد قول الحكيم
ايبور ..

وعندما فاض الاناء بالشعب وتراكمت في أعماقه مشاعر السخط
والغضب ، وناء تحت وطأة الفساد والاستغلال ، ولم يعد لأمه
مخرج سوى الانطلاق في تلك الثورة العارمة التي اكتسحت في
طريقها كل شيء ، وقلبت كل الأوضاع الدينية والاجتماعية ، على
نحو ما سرفاه في تحذيرات ذلك الحكيم ايبور ..

لقد ثار الشعب ضد الفراعنة والنبلاء وحكام الأقاليم ، وقضى على
سيطرتهم واستيلزاتهم وحطم مقابرهم وتمثيلهم ، واضطربت كافة
شئون المجتمع حتى أصبحت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار ..
وعندما هدأت الأحوال واستقر النظام أخيرا بقيام الدولة الوسطى
اتضح انه كان لهذه الثورة الجامعة الى جانب وجهها السلبي المدمر
جانب آخر ايجابي بناء في مجال القيم الأخلاقية المعنوية ،
إذ نجحت في نقل الفكر المصرى القديم من مجراه القديم الى مرحلة
جديدة تعترف بحق الشعب في الخلود وقيم العدالة الاجتماعية
والديموقراطية الدينية ، فكان ذلك ارهاصا بالاعتراف بحقوق الأفراد
وحق الشعب لأول مرة في التاريخ

تحذيرات الحكيم ايبور ..

ولنستمع الى تحذيرات الحكيم ايبور للملك بيبي الثانى التى
يصف فيها الأحوال بفعل الثورة المشتعلة خارج أسوار قصره والتى
لا يكاد يسمع عنها شيئا بفعل بطانته التى تغذيه بالأكاذيب وهذه
التحذيرات وصلت إلينا في وثيقة مكتوبة في عهد الأسرة الحادية
عشرة ، ولكن يبدو انها منقولة عن أصل أقدم منها لو سجلت عن
الستة الرواة كما حدث بالنسبة للشعر الجاهلى الذى تم تسجيله في
صدر الاسلام بعد أن قال قرونا في صدور حافظيه .

يبدأ النص بإعلان أن الثورة كانت عامة اشتركت فيها مختلف طوائف الشعب وقطاعاته « حتى اصحاب هذا الحرف كبائعي الحلوى وصانعي الجعة » .

وما أن نقرأ بضعة سطور حتى نعرف أن الحكومة قد انهارت بكل أجهزتها ودواوينها ومحاكمها ، ونهب ما فيها من سجلات ووثائق ، وديست القوانين بالأقدام .

يقول ايبور « لقد سلبت وثائق قاعة العدل ، وأصبح المكان السرى مكشوفاً ، وطرحت سجلات المحاكم أرضاً ، وصار الناس يطلونها بالأقدام في السجلات العامة والفقراء يبقرونها على قارعة الطريق » .

ولم تنج الإدارات العامة من هذا المصير ، وافشيت الأسرار المقدسة ، وشملت حملة الانتقام أشخاص الموظفين أنفسهم ، يقول ايبور :

« انظر ، لقد هوجمت الإدارات العامة ونهبت قوائمها ، وأذيعت أسرار التعاويز السحرية .. وفي الحق لقد ذبح الموظفون ، وسلبت دفاترهم ، ولم تعد لكبار الموظفين كلمة مسموعة » .

بل أن المؤسسة الملكية نفسها لم تنج من هذا المصير فانهارت الملكية ونهبت مقابر الملوك وحطمت تماثيلهم .

« انظر ! لقد تجلس الثائرون فحرموا البلاد الملكية ، وأصبح الناس يظهرون العداء للملك ، وما خيأته الأهرام أصبح خلوا ،

وترتب على انهيار الحكومة أن اختل الأمن ، وعمت الفوضى في البلاد ، فلم تعد للدولة قوة رادعة تحمي المواطنين ، وانتشرت عصابات قطاع الطرق ، وأصبح على كل فرد أن يحمي نفسه بوسيلته الخاصة ، يقول ايبور :

« لقد امتلات البلاد بالعصابات حتى ليذهب الرجل الى حقله حاملاً درعه ..

« لقد أصبح حامل القوس مستعدا ، والمجرمون في كل مكان ،
وأصبح قطاع الطرق يختبئون في الأكمام حتى اذا أتى المسافر ليلا
انقضوا عليه فسلبوا أحماله ، وما لديه يسرق ، ويضرب بالعصا
حتى تخمد أنفاسه ، ثم يذبح ظلما . »

« ان الرجل ليذبح بجوار أخيه فيتركه وحيدا لينجو بنفسه »
كما ترتب على انهيار الحكومة أن توقفت جباية الضرائب ، وافتلت
الخزانة العامة ، ونهبت المخازن الملكية وأقفر من الخيرات .
ان مخازن الملك أصبحت ملكا مشاعا لكل فرد ، ولا ضرائب تجبى
للقصر كله رغم انه ينبغي أن يكون للقصر شعير وقمح ودجاج
وسمك ، وقد كان يحوى المنسوج الأبيض والتيل الجميل والنحاس
والزيت ويملك الحصر والبسط وكل الأشياء الجميلة .

ان المقاطعات لا تؤدي الضرائب بسبب الحروب الداخلية ،
وهناك حاجة الى الفاكهة واللحم وكل أنواع التجارة وما ينتجه
الصناع ، فما فائدة وجود بيت مال بدون دخل ؟

وتدهورت الحالة الاقتصادية في البلاد ، فتوقف الانتاج ، وبارت
الزراعة ، وهجر الناس الحرف والصناعات ، وعم الفقر والخراب ..
وتمتلئ بردية ايبور بوصف مظاهر هذا الخراب الاقتصادي ،
فتقول :

« ان النيل يفيض ، ولكن أحدا لا يذهب للحرث ، وكل انسان
يقول لا اعرف ماذا حدث في البلاد » مما يدل على أنه لم يعد للناس
ثقة كافية لفلاحة الأرض في هذا الزمن العصيب ، فهجروا الأرض
وتركوا المواشى تهيم على وجوها ، ولم يعد للناس شيء .

وفي الحق .. لقد نفدت الغلال في كل مكان ، وتجرد القوم من
الملابس والعطور والزيوت ، وصار كل انسان يقول لم يعد عندي
شيء ، وتركت الماشية تهيم على وجوها وليس هناك من يعتنى بها ،
وكل انسان يذهب ويأخذ لنفسه منها ما يريد ..

وتوقفت الصناعات ، فلم يعد هناك صانع يعمل ، والعدو يحرم البلاد حرفها ..

وتعطلت التجارة الخارجية التى نشطت فى عهد الدولة القديمة مع فينيقيا وغيرها من الدول البحرية .. واصبح الناس لا يبحرون شمالا الى بيبيلوس .

وأدى هذا الانهيار الاقتصادى الى انتشار القحط والبؤس والمجاعة حتى أصبح القوم يقتاتون بالحشائش ، ويعيشون على الماء القراح ، وحتى الطيور لا تجد ما تأكله من فاكهة وأعشاب ، وأصبحت القاذورات تخطف من أفواه الخنازير ..

وانتشرت الأمراض والأوبئة بسبب انهيار الاقتصاد والصحة العامة ، وابت القاذورات والمجاعة الى هلاك خلق كثيرين ..

لقد انبث الوباء فى كل الأرض ، والدم صار فى كل مكان ، وأصبحت لغائف الموميات تجار بالشكوى دون أن يقترب منها انسان وكانت الجثث من الكثرة بحيث تعذر دفنها فكانوا يلقون بها فى النهر كالماشية الميتة .. وفى الحق لقد دفن اناس عديدون فى النهر فاصبح لهم قبرا ..

وصار الناس يقدمون على الانتحار عن طيب خاطر هربا من هذا الجحيم ..

« لقد أصبحت التماسيح فى تخمة بما سلبت إذ يذهب اليها الناس عن طيب خاطر » .

انتقام الجوع ..

وكان من الطبيعى أن تدفع هذه الأوضاع الشعب الجائع الى مهاجمة قصور الحكام والأثرياء ، فانزل بهم أسوأ الانتقام من قتل ونهب وحرق وطرده ..

« واصبح الحزن يملأ قلوب اصحاب الاصل الرفيع ، أما الفقراء

فقد امتلأوا سرورا ، وأصبحت كل بلدة تقول فلنقص اصحاب الجاه من بيننا » ..

وتزخر وثيقة تحذيرات الحكيم ايبور بوصف دقيق لما حل بالطبقة العليا من الانتقام ، إذ يلاحظ أن « الحكام أصبحوا جوعا وفي بؤس شديد » وأن « قضاة البلاد قد طردوا من طول الأرض ورؤساء البلد يهرولون دون أن يكون لهم عمل وشمل انتقام الشعب أبناء الأمراء وموميواتهم » حقا لقد أصبح أولاد الأمراء يضرب بهم الناس عرض الحائط ، والأطفال الذين كانوا محبوبين القى بهم على قارعة الطريق ، وانتزعت موميات علية القوم من قبورها .. « والذين كانوا في المكان الطاهر قد القوا على قارعة الطريق وأصبح سر التحنيط مستباحا » ..

« أن الأرض أصبحت ملأى بالعصابات ، والرجل العظيم يغتصب التعماء متاعه ، وصارت المخازن خاوية ، وحراسها يلقون على الأرض » .

ونهب الجوع ثروات الاثرياء ، فأصبح الذين يملكون لا يملكون ، والذين كانوا محرومين من كل شيء يتمتعون بأجمل الأشياء واندرها حتى لو لم تكن ذات نفع لهم أو كانوا لا يستطيعون تقدير قيمتها ، وقد أفاض الحكيم ايبور في وصف مظاهر هذا الانقلاب الاجتماعي في مقارنات بديعة مريرة ساخرة .. يقول الحكيم ايبور :

« حقا ، لقد أصبح المعوزون يملكون الآن أجمل الأشياء ومن كان يرتق نعليه فيما مضى صار صاحب ثروة .

أنظر .. أن من لم يكن في مقدوره أن يصنع لنفسه تابوتا أصبح يملك قصرا ..

ومن لم يكن في قدرته أن يقيم لنفسه حجرة أصبح الآن يملك فناء مسورا ..

ان الرجل الغنى أصبح يمضى الليل وهو ظمان ومن كان يستجدى
منه الحثالة أصبح يملك الآن الجعة الجيدة ..
ان الذين كانوا يملكون الملابس أصبحوا يرتدون الخرق البالية
ومن كان لا ينسج لنفسه أصبح يملك الكتان الجميل ..
انظر .. ان من لم يكن يملك قاربا أصبح الآن يملك سفنا ، وصار
صاحبها ينظر اليها كمدا بعد أن لم تعد ملكا له ..
ومن لم يكن يملك ما يقيه حرارة الشمس أصبح يتمتع بالظل ومن
كان لهم ما يأويهم أصبحوا الآن عرضة لزعزاع العواصف ..
انظر .. أن من لم يكن يملك ثورا أصبح يملك قطعانا ومن لم يكن
يملك حفنة قمح أصبح يملك أجرانا ، ومن كان يستجدى قليلا من
القمح أصبح يخرج من مخازنه الصدقات ..
ان من لم يكن له أتباع أصبح الآن رب عبيد ومن كان من عليه
القوم أصبح ينفذ أوامره ..
ويمضى الحكيم ايبور في هذه المقارنات المرة في أجزاء متفرقة من
تحذيراته ، ثم تزداد لهجة سخريته مرارة وهو يقول :
« ان الأصلح الذى كان لا يستعمل الزيت أصبح يملك اوانى
العطور الذكية » !

ومن كانت تشاهد وجهها فى الماء أصبحت صاحبة مرآة ..
ومن كان يجهل العزف بالعود أصبح يملك قيثارا ..
ومن كان لا يغنى له احد أصبح يملك الثناء الجم لدى آلهة
الغناء ..

ان الذين كانوا ينامون على الأسرة أصبحوا يرقدون على الأرض ،
والذى كان ينام فى الأوساخ أصبح يملك سريرا ..
وينتقل الحكيم ايبور الى لهجة أكثر تأثيرا فى أذان سامعيه فيمضى
فى تصوير ما آل اليه حال السيدات النبيلات من ضعة وهوان بعد
انقلاب الأوضاع الاجتماعية ، فهن قد اضطررن الى العمل بأيديهن

او التسول او بيع اجسادهم ليحصلن على القوت في الوقت الذي
 أصبحت الفقيرات يرفلن في الترف ، فيقول :
 « ان الذهب واللازورد والفضة والياقوت أصبحت تحلى اجساد
 الجوارى في حين أن السيدات النبيلات يجبن الطرقات متسولات
 يقفن ليت عندنا شيئاً نأكله ..
 لقد أصبحت ربكات الخدور في حالة تستحق الرثاء يرتدين الخرق
 البالية ويتوارين خجلاً اذا حياهن احد ..
 ان اللواتى لم يشاهدن ضوء النهار (كناية عن السيدات المترفات
 القابعات في الخدور) قد خرجن ، والعقيات الشريقات يرقدن على
 الفراش الخشن (كناية عن بيع اجسادهن) ..
 واصرح من ذلك : أن السيدات النبيلات اللاتى كن مقاعاً حسناً
 أصبحن الآن يقدمن اجسادهن في الفراش ، والذي كان لا يستطيع ان
 يتخذ له زوجة أصبح الآن يجد السيدات النبيلات .
 ودارت الدائرة ايضاً على أبناء الوجهاء ، إذ تخلى عنهم أبائهم
 وامهاتهم :
 « انظر .. ان السيدات الشريقات يهربن ويلقين بأطفالهن خشية
 الموت .. ان اولاد رجال البلاط أصبحوا في خرق بالية ، واولاد
 الحكام يلقون في الطرقات » .

★ ★ ★

الحالة النفسية : الحزن والالحاد ..

ويلخص الحكيم ايبور الموقف بقوله ان « الأرض أصبحت تدور كعجلة صانع الفخار » أى أن أقدار الحياة قد تبدلت ، وأصبح من كان فى الأعلى فى أسفل ، ومن كان فى أسفل السلم الاجتماعى صار فى أعلاه ، كما تدور عجلة صانع الفخار فتأتى عاليها بسافلها .. والتهمت النيران البوابات والعمد والجدران ، وتحطمت التماثيل البديعة المصنوعة من حجر الديوريت ، أو القى بها فى أبار المقابر . وأصبحت الأرض الحمراء منتشرة فى كل مكان ، وخربت المنازل ، وتكسرت الصناديق المصنوعة من الأبنوس ، وتحطمت الأخشاب الثمينة ، واقتلعت الأشجار من جذورها كاعواد الكتان ، وصارت الأنثا عاقرات ، وامتنع الحمل ..

وانعكست هذه الأوضاع على نفسيات الناس ، فحلت الآلام والأحزان محل البهجة والسرور ..

« لقد قضى على الفرح ، فلم يعد أحد يشعر به ، والحزن والأسى ينتشران فى البلاد ..

ان الوجوه قد شحبت ، والقلوب قد انفطرت ، والعظماء لا يقيمون الأفراح ..

ان الأغاني أصبحت تعبر عن الحزن ، والذين كانوا يجلبون البهجة بأقاصيصهم أصبحوا يجلسون على أحجار الطواحين (أى أن القصاصيين الذين يسلون الناس أصبحوا بلا عمل) .. وحتى الماشية .

« أصبحت قلوب الماشية تبكى ، والقطعان تندب حالة البلاد » وشاعت فى الناس موجة من الشك والالحاد وعدم الخوف من الآلهة ، وهذا انقلاب خطير نشهده لأول مرة فى الفكر المصرى القديم الذى يتميز فى كل عصوره بقوة الايمان الدينى ..

يقول ايبور :

« صار الرجل الاحمق يقول اذا عرفت أين يوجد الاله قدمت له

القرابين »

« ان القصابين يذبحون الأوز ويقدمونها للآلهة على انها ثيران » !

« وفي الحق ، لقد أصبحت التقوى اسما فقط ، والظلم قد ساد

بدلا منها » ..

وانتشر اليأس القاتل في النفوس حتى أصبح الناس يفتشون

الموت تخلصا من الام الحياة :

« أصبح العظماء والحقراء يقولون أين هو الموت ، والأطفال

الصغار يقولون ليتنا لم نولد في هذه الحياة »

تصنيفات ايبور ..

وانت هذه الأحداث الجسام الى اضعاف البلاد قفزها الأجانب

وطمع في خيراتها الطامعون وساموا أهلها الذل والهوان ..

يقول ايبور : « لقد نزل قوم أغراب من الخارج الى مصر ، لأن

« الدلتا أصبحت بلا حماية ، وأوقف الأجانب عجلة الانتاج في

البلاد لو سيطروا عليها من أيدي المصريين : « فلا صانع يعمل لأن

العدو حرم البلاد حرفها » و « أصبح الأجانب هم المهرة في صناعات

الدلتا » ..

وأصبحت مصر من الذل كالجارية التي تصب الماء على أيدي

سيادها » !

ويضيق الحكيم ايبور بهذه الأوضاع والمآسى فيستمطر اللعنات

على كل شيء ، ويتمنى أن ينقرض الناس وتعقم النساء ويقول :

« ليتها تكون النهاية للجميع ، ليته لا يكون هناك حمل

ولا ميلاد ، وتخلو الأرض من الضوضاء والنزاع » ..

ثم يمضى الحكيم ايبور فيعنف نفسه ويلقى اللوم عليها لأنه لم

يحذر من هذه الأوضاع من قبل ، فيقول :

« ليتنى كنت قد رفعت صوتى قبل الآن ، لربما انقذت نفسى مما
اعانته ، ما اشد حزنى بشقاء هذا العصر ، !
وينتقل ايبور من تعنيف نفسه الى شن الهجوم الشديد على الملك
الجالس على العرش فينحو عليه باللائمة حيث يعكف منعزلا فى
قصره بينما تغذيه حاشيته بالأكاذيب ، فيقول له :
« ان القيادة والقطعة معك ، ولكنك لا تستخدمهما ، بل تترك
الأرض نهبا للفوضى والخراب » .
ثم يصيح فى وجه الملك قائلا :

« ليتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك ، ولكنه لا يلبث ان يعود
الى اللين فيأخذ فى تذكير الملك بما كانت عليه الأحوال قبل
الاضطرابات من خير عيم ، وكيف كانت اقدار الناس محفوظة
وشعائر الآلهة تؤدى على خير وجه ، فيقول :

« تذكر كيف كانت قرعى الأنظمة ويعزل الأشرار .. كيف كانت
تقدم القرابين وتظهر المعابد ، كيف كان معبد الإله طاهر كالبلن تطلق
فيه البخور وتقدم القرابين من الخبز ..

« تذكر كيف كانت الثيران تذبح ، وتوضع الأوز على النار ، ويغير
الحكيم ايبور لهجته للمرة الثالثة فيمضى يحلم بعصر ذهبي جديد
يشرق فى الأفق تستقر فيه الأحوال مرة أخرى وتبعث القيم من
جديد ، وتنتعش النفوس بالأمال ، ويوزل الغم عن البلاد وهذه أول
نبوءة فى التاريخ عن « البيوتيا » أو مدائن الأحلام :

« انه من الخير ان تسير المراكب جنوبا ..

انه من الخير ان تنصب الشباك وتصاد الطيور ..

انه من الخير ان تشيد ايدى الناس الأهرامات وتحفر البرك وتقيم
للآلهة مزارع فيها اشجار ..

« انه من الخير ان يصيح الناس سكارى بفرح القلب ..

انه من الخير ان يرتسم السرور فى الوجوه ، وحكم الاقاليم

يقفون وينظرون الى الأفراح المقامة في بيوتهم وهم يرتدون أجمل الملابس ..

انه من الخير أن تكون الأسرة وثيرة ، ووسائل العظماء محمية بالتعاون ، ويحصل كل انسان على سرير خلف باب مغلق ولا يضطر الى النوم في الأعشاب »

مرتبة نفرو هو ..

وهناك وثيقة أخرى تتعرض لوصف الثورة هي نبوءة « نفرو هو » وهي لا تصف أحداث الثورة في ذاتها بقدر ما تتعرض لآثارها الفكرية والسياسية والاجتماعية مما يدل على أن كاتبها لم يشهد بنفسه أحداث الثورة مثل ايور والواقع أن هذه الوثيقة كتبت في أوائل عهد الأسرة الحادية عشرة والغرض منها الدعاية لمؤسس هذه الأسرة امنمحات الأول . أما الجزء الذي يصف آثار الثورة فيقول :

« انتبه ياقلبي واذرف الدمع السخين على هذه البلاد في كل نبضاتك . أصبحت البلاد خرابا ، ولا أحد يهتم بها ، ولا من يتحدث او يذرف الدمع السخين ..

كيف امست هذه البلاد واضحت ؟

ان الشمس قد احتجبت ولم تعد تشرق ليرى الناس . ونهر مصر قد جف حتى ليستطيع المرء أن يعبره ماشيا ان كل ما هو طيب قد ولى ، والبلاد خضعت للشقاء وغزاها البدو ..

ان الأعداء قد ظهوروا في مصر ، والآسيويين قد نزلوا الى بر مصر سوف أريك هذه البلاد ذليلة بائسة ، وما لم يكن يحدث أبدا قد حدث ..

سوف أريك الابن وقد أصبح عدوا ، والاخ قد أصبح خصما ،

والابن يقتل أباه ، والأفواه ملأى بعبارات الاستجداء ، وكل الأشياء
الطيبة قد ولت ، والأرض يعمها الخراب ، وأملك المرء تنزع منه
وتعطى للقريب ..

لسوف أريك المالك يعاني الحاجة والغريب قد استولى على ماله ..
ان الأرض تضاءلت وحكامها قد تضاعفوا ..
والقمح أصبح نادرا ، ولكن المكيال كبير ، وجامع الضرائب يصر
على أن يجعله رابيا ..
لسوف أريك الأرض ترسف في أغلال العبودية واقليم هليوبوليس
لم يعد مستقرا للآلهة ..

وبالرغم من أن هذه المقطوعة الأدبية وضعت أساسا لتمهيد
الأذهان لظهور امتحانات الأول في صورة البطل المخلص الا انها
تصور الحالة الاجتماعية التي كانت تحياها مصر في عصر الانقطاع
الأول وهو عصر الاقطاع الذى تلا الثورة التى هدمت النظام الجديد
ولم تنجح في ايجاد نظام جديد للحكم . والثورات الفاشلة تجلب
دائما من الظلم أكثر مما قامت لهدمه ..

فها نحن مع نفرور هو نرى مصر في حالة سيئة تستدر الدموع ،
ولكن احدا لا يذرف عليها دمعة واحدة ، وكأن الدموع قد جفت في
الماقى ، او لكان القلوب قد تحجرت فلم تعد تشعر أو تتالم ، فقد
أصبحت البلاد خربة ممزقة ضعيفة متهالكة ، وحتى الشمس قد
احتجبت كناية عن الظلام المعنوى الذى يعيش فيه الناس
فاصبحوا ينظرون ولا يبصرون ، وحتى النيل قد جف ولم يعد
يفيض كعهده بالخيرات ، وكل ما هو طيب قد انقضى وولى ، وأتى
الغزاة الأجانب من الشرق والغرب ليسوموا مصر الخسف
والهوان ، ويظهروا على ابنائها ، ويتمتعوا دونهم بخيراتهما . أما
اهل البلاد فقد هوى الى الدرك الأسفل بسبب الفقر والحاجة ،
فأصبح الابن يقتل أباه ، والاخ يعادى أخاه ، ولا يهرع لنجدته اذا

تعرض لخطر أو أصابه مكروه ، لأن هم كل انسان أن ينجو بنفسه ،
ولكن شبح المجاعة وظلم الحكام يطاردان الجميع ، فاصبحت
الأفواه ملاءى بعبارات الاستجداء ، وأصبح الناس لا يجدون
كفائتهم من الخبز ، ولكن جامعى الضرائب لا يشفقون على حالهم ،
وإنما يصرون على استخدام مكياى كبير ويستوفون به الكيل رابيا !

ضع خبير ربح سنب ..

رابيا كيف صور الحكيم ايبور ونقرروهو سوء الأحوال
الاجتماعية بأسلوب يقطر حزنا واسى ، ولكن الاحساس بالاجتمع
وبالعلاقات الاجتماعية لا يبدو واضحا قويا كما يبدو فى تأملات
الكامن ، خع خبر ربح سنب ، وكان من كهنة هليوبوليس فى عصر
الاقطاع ، وهذه التأملات منقوشة على لوح من عهد الأسرة الثامنة
عشرة وهى محفوظة الآن بالمتحف البريطانى ، وفيها يقول :
« ان العدالة قد نبذت ، وحل الظلم محلها فى قاعات العدل ، ان
تعليم الآلهة قد انتهكت ، وأوامرها قد أهملت ، ان البلاد صارت فى
هم والحزن فى كل مكان ، والمدن والأقاليم فى غويل ، وكل الناس على
السواء يرتكبون الآثام ، اما الاحترام فقد مضى عهده وانقضى ..
ويمضى » خع خبر ربح سنب « يندب سوء الأحوال وهو يتحدث
الى قلبه قائلا :

« عندما أريد أن أتحدث عن ذلك ينوء جسمى بحمله ، وأشعر
بالدؤس فى قلبى المحزون ، فما من قلب يتحمل ذلك مطلقا ، ولكن
القلب الشجاع يكون رفيقا لسيدة فى الملمات ، لبتك ياقلبي تتحمل
الآثم حتى يمكننى أن أسر اليك ببلاوى ، ولأحدك ، ولتجيبني على
كلامي وتفسر لي ما يجرى فى البلاد ، اننى أتأمل ما قد حدث .. ان
المصائب تقع اليوم ومصائب الغد فى طى القدر ، وكل الناس على ذلك
لاهون مع أن البلاد فى اضطراب عظيم ، ولا أحد يسلم من الشر ، ان

الجميع يرتكبون الآثام ، والحزن يفعم القلوب ، والذي يعطى
الأوامر لا يفترق عن تصدر له الأوامر ، وقلب كل منهما ساكت عما
حدث ، ان الناس يستيقظون على الشر كل صباح ، والقلوب لا تنبذ
الشر ، فما كانت عليه بالأمس تكرر اليوم ، وليس من عاقل يدرك ،
او حكيم يستبد به الغضب فيدفعه الى الكلام ، ما أثقل همى
واطوله ! ان الضعيف لا يملك أن يدفع عن نفسه اذى القوى ، وانه
لمن المؤلم أن يسكت الانسان على هذه الامور .



هذه القصائد الثلاث تصور بالتفصيل سوء الأحوال الاجتماعية
التي تورتبت على انهيار النظام القديم واندلاع الثورة الشعبية التي
اقتت على كل شيء . ولكن هذه الثورة لم تدمر الأوضاع الاجتماعية
والاقتصادية وحدهما وانما زلزلت كل المعتقدات القديمة وادت الى
انهيار الصرح المثالي الذي قامت عليه الحضارة الفرعونية ، وادت
بافكار الشك والمادية ، ونقلت الفكر المصرى الى مجرى جديد تملعا
يقوم على البحث عن العدالة الاجتماعية والاعتراف بحقوق الأفراد
وحقوق الشعب ..





بزوغ القيم الفردية والديمقراطية

انت نيران الثورة الشعبية التي اندلعت في
اواخر ايام الأسرة السادسة على كل مظاهر المدنية
والحضارة في الدولة القديمة وادت الى انهيار
العلاقات الاجتماعية بين الطبقات والأفراد . وقد
انعكست هذه الأوضاع السيئة على الحالة
النفسية للناس . وكان من الطبيعي ان تنعكس ،
وقد حدثنا الحكيم ايبور كيف ان السرور والافراح لم يعد لها مكان في
القلوب ، وكيف كان الناس يطلبون الموت ويقدمون على الانتحار ..
وقد حفظ لنا التاريخ وثيقة فريدة أخرى تصور ادى تصوير هذه
الحالة النفسية التي اخذت بخناق النفوس بسبب فساد الأحوال
الاجتماعية وهى وثيقة بدون عنوان في الأصل ، ولكن يطلق عليها
المؤرخون « حوار بين انسان سئم الحياة وبين روحه » ، وقد حللها
برستيد تحليلًا دقيقًا في كتابه « فجر الضمير » ، وشبه صاحبها الذى
توالت عليه الأمراض والنكبات والرزايا بالنبي ايوب .
وهناك في الواقع تشابه كبير بين سائم الحياة الفرعونى والنبي
ايوب السامى مما يجعل من المحتمل ان تكون هذه الوثيقة المضربة
القديمة هى الأصل التاريخى لقصة النبي ايوب .
وايوب المصرى هذا كان رجلاً لطيف الروح مرهف المشاعر ،
ولكنه سقط فريسة لسوء الحظ ، فقد دهمته الأمراض وهجره الأهل
والأصدقاء ، ولم يجد احدا يهتم به او يعنى بأمره ، بل ان جيرانه
سرقوا أمواله ، واصبحوا يتأففون من ذكر اسمه ، لقد اصبح اسمه
كالرائحة الكريهة في الأنوف ، ولم يشفع له لدى هذا المجتمع الظالم
مافعله من الخير فيما مضى ، ولذا قرر ذلك البائس ان ينهى

حياته بيده ، فنراهم واقفا على حافة قبر يراود نفسه على الاستقرار فيه الى الأبد ، ولكن روحه لاتطأوعه ، ويقوم حوار بينه وبين روحه كما لو كان يتحدث الى شخص آخر ، فتقول له روحه انها تخشى الا تجد قبرا تستقر فيه بعد الموت ، وتقترح ان يكون الانتحار بالحرق ، ولكنها تعود فتتكص عن هذه النهاية المؤلمة وترفض فكرة الانتحار تماما ، وتأخذ في تصوير احوال الموت « جالب الحزن والدموع حيث يؤخذ الانسان من بيته وي طرح على التل ، وحيث يهبط الانسان الى حيث لا يرى الشمس » وتعرب الروح عن شكها فيما وراء الموت .. فإى فائدة جناها هؤلاء الذين بنوا مقابرهم من الجرانيت الأحمر ، واقاموا لهم الأهرامات الجميلة الخالدة ، واصبحوا كالألهة ؟ ليست موائد قرايبنهم قد اضحت خالية وخربة ومسهم البلى تماما كأولئك الفقراء والمساكين الذين يهلكون فوق الجسور وتحت شواظ الشمس الحارقة لتنهشهم في النهاية اسماك البحر ؟ وتقترح عليه روحه حلا وحيدا هو ان يتمتع ما امكنه بالسعادة في هذه الحياة دون ان يلقي بالا الى شيء . (او كما نقول في مثلنا الشعبي : يضربها جزمة !)

وهذه نغمة جديدة تماما على الفكر المصرى التقليدى : الشك فيما وراء الموت والبحث عن الخلاص في مباحج الحياة . ولكن قبل تحليل هذه النغمة الجديدة يجدر بنا ان نقف أولا على افكار ذلك البائس الذى سئم الحياة لنعرف شيئا عن حالته النفسية .

انه يلقي اربع مقطوعات شعرية يصف في الاولى الى اى مدى اصبح ذكره مقيتا كريها لدى جيرانه ومعاصريه ، ويتحدث في الثانية عن فساد الأحوال الاجتماعية وهو سبب ما هو فيه من غم وحزن ، ويتغزل في الثالثة في فكرة الموت باعتباره الراحة الوحيدة ويفرد الرابعة لمراجعة النفس وثنيها عن الحزن والاسى .
تقول المقطوعة الأولى :

انظر .. ان اسمى مقيت
اكثر من قاذورات الطير
في ايام الصيف تحت سماء ساخنة
اكثر من وعاء السمك
في يوم صيد تحت سماء ساخنة
انظر .. ان اسمى مقيت
اكثر من رائحة الدجاج
فوق تل من الصفصاف ملء بالأوز
انظر ان اسمى مقيت
اكثر من رائحة الصيادين
على شطآن مستنقع بعد انتهاء الصيد
هكذا يشعر هذا البائس بالألم والأسف لنفور الناس منه ، ثم
يتلفت ليتعرف عن سبب بؤسه ومأساته فيعرف انه المجتمع ومالت
اليه الأمور من فساد وخيانة وظلم ، فينطلق في شكوى مريرة من
المجتمع تحمل أعنف استنكار للفساد الاجتماعي في كل العصور ،
فيقول في مقطوعته الثانية :
الى من اتحدث اليوم ؟
ان الاخوان اشرار
واصدقاء اليوم لا يستاهلون الحب !
الى من اتحدث اليوم ؟
ان القلوب قلوب لصوص وكل شخص ينهب مالجاره
الى من اتحدث اليوم ؟
ان الرجل المهذب قد اختفى
وصاحب الوجه المكشوف يتقدم الصفوف !
الى من اتحدث اليوم ؟
ومن يجب ان يثير الغضب بسلوكه الشرير
يثير حبور الناس ويمدحونه تملقا !

الى من اتحدث اليوم ؟
والنفس يزاولون السرقة
وكل شخص يستولى على ما ليس له !
الى من اتحدث اليوم ؟
ولم تعد هناك فضيلة
والارض يرثها اصحاب الرذائل !
ويخلص سائم الحياة من ذلك الى ان الحياة اصبحت لاتسحق ان
تعاش ، ولذلك فهو يتوق للموت ، ويمضى في مقطوعته الثالثة يتغنى
بالموت قائلا :

الموت امامى اليوم
كالشفاء للمريض
كنزهة فى الحديقة بعد المرض !

الموت امامى اليوم
كشذى الراتنج
كالجلوس تحت شراع فى النسيم !

الموت امامى اليوم
كعبير ازهار اللوتس
كالدخول فى نشوة الخمر

الموت امامى اليوم
كالجو المنعش
كعودة المحارب المكسود الى بيته

الموت امامى اليوم
كصفاء السماء
كرجل يقتحم المجهول

الموت امامى اليوم
كرجل يحن الى رؤية بنيه

بعد سنوات طويلة في الأسر

اما مقطوعته الرابعة فتتكون من ثلاثة ابيات فقط تأخذ فيها الروح في تخفيف الام صاحبها وتطلب منه ان يتخلّى عن الحزن والأسى ويستقبل مباحج الحياة .

ويمكن ان نلاحظ على هذه القطعة الفريدة في التغنى بمآثر الموت انها لاتربط فكرة الموت مطلقا بفكرة الاله والحساب والعالم الآخر بل تقتصر على تصوير الموت بأنه نهاية سعيدة لآلام نفسية مبرحة ، فالحياة في نظر هذا البائس كالمريض الطويل الذى نشفى منه بالموت ، والموت كفترة النقاهة بعد المرض ، وكشذى الزهور الجميلة ، وكرحلة على صفحة الماء في يوم يهب فيه النسيم ، وكعودة المحارب المتعب بعد أهوال الحرب الى بيته ، او حنين الأسير الى رؤية بنيه بعد ان قضى سنوات طويلة في ربة الأسر .

وهذه نغمة جديدة تماما على الفكر المصرى القديم الذى كان يربط دائما بين فكرة الموت والعالم الآخر بما فيه من آلهة وعقاب وثواب ، بل ان الفكر الدينى في عهد الدولة القديمة لم يكن يعتبر الموت نهاية بل يعتقد ان الحياة الحقيقية هى التى تبدأ في السماء ، ومن هنا جاءت محاولة التغلب على الفناء المادى للجسد باقامة المقابر المنيعه وتحنيط اجساد الموتى ، وتزويد المتوفى بالأطعمة واحاطته باتباعه وتمائيله ووسائل ترفه الدنيوى ، فلو كان الموت نهاية لما كان هناك مايدعو الى كل هذه الاحتياطات ، ولكن الموت في نظر الفكر التقليدى ليس سوى حياة بكل معنى الكلمة يحياها المتوفى في العالم الآخر مع رع الذى يأخذ بيده في رفق ويرفعه اليه .

ان تصوير سائم الحياة للموت لايمكن ان ينبع الا من فلسفة مادية لاتؤمن او تهتم بالعالم الآخر ، ويكفى انه ينظر الى تجربة الموت كغيبوبة لذيدة يعبر عنها ادق تعبير بأنها تشبه الدخول في نشوة الخمر .

وترتيباً على ذلك يمكن القول بأن الثورة الشعبية الجامعة التي قامت في اعقاب الأسرة السادسة وامتدت تحت الرماد طول عهد الاقطاع لم تقتصر على هدم اعمدة المجتمع القديم بل هدمت الصرح المثالي لذلك المجتمع بأكمله ، واثت بأفكار مادية لم تكن معروفة من قبل ، ويمكن ان تصف هذه الأفكار بحق بأنها اقدم مظهر للفكر المادي في تاريخ البشرية . وقد سبق ان رأينا في وصف الحكيم ايبور للثورة كيف انها اتت بحالة من الشك والاستخفاف بالآلهة حتى « ان الرجل الاحمق اصبح يقول ارني اين يوجد الاله فاقدم له القرابين ، واصبح الناس كما يقول الحكيم ايبور يغشون الآلهة فيقدمون لها قربانين من الأوز على انها ثيران ، وهما نحن نرى في حوار بين انسان سئم الحياة وروحه ، تصويراً للموت يختلف تماماً عن صورته في الفكر المثالي ، ثم اخيراً تلك النصيحة الجريئة التي تنصحه بها روحه بعد ان رفضت فكرة الموت ان يتمتع بيومه السعيد ولايلقى بالا الى شيء !

الأنشودة عزف القيثارة

هذه الأفكار الجديدة لاتبدو جلية واضحة في شيء مثلما تبدو في انشودة بديعة يرجع عهدها الى اواخر عهد الاقطاع وبداية الأسرة الحادية عشرة ، وهي اكثر نصوص تلك الفترة شهرة ويبدو انها كانت ايضا اكثر شيوعاً في عصرها لأنها تبرز هذه الأفكار الجديدة في اسلوب شاعري رقيق يخاطب الوجدان وعلى نحو واضح صريح وهي انشودة عزف القيثارة .

وقد وصلت اليها نسختان من انشودة عزف القيثارة احدهما مكتوبة على صحائف من البردى ، والاخرى منقوشة على جدران قبر احد امراء الأسرة الحادية عشرة في طيبة هو الأمير « انتف » ، ويبدو فيها عزف قيثارة اعمى متقدم قليلاً في السن يعزف الأنشودة على قيثارة بمصاحبة جوقة من المغنين والموسيقيين ، وتبدأ الانشودة بتحية الأمير المتوفي قائلا :

يلقه من سعيد ذلك الأمير الطيب
ان مصيره قد ال الى الانتهاء
ثم يبدأ عزف القيثارة يتحدث عن دورة الزمن ، وتعلقب العصور
والاجيال ، ويذكر تلك الحقيقة الخالدة التى تقرىص بالجميع وهى
الموت ، فيقول :
« اجيال تذهب
واجيال تجىء
هكذا الحال منذ زمن الجودود
منذ زمن الالهة الغابرة
الذين يستقرون الآن فى اهرامهم
والنبلاء والعظماء الذين رحلوا
ودفنوا فى قبورهم
بعد هذا التصوير السريع لمجرى الزمن ، وتقرير تلك الحقيقة
الخالدة التى تطارد البشرية باجيالها المتعاقبة ، فلاينجو منها
الملوك والنبلاء والعظماء تفاجئنا الانشودة بتسألوا يدعو الى الحيرة
فتقول :
هؤلاء الذين بنوا لانفسهم الأهرام والمقابر
ان ديارهم كان لم تكن
ترى ماالذى جرى لهم هناك ؟
ويضرب عزف القيثارة مثلاً بحكيمين من اعظم حكماء الماضى وماقد
جرى لهما بعد الموت اذ تهدمت آثارهما وكانها لم تكن :
« لقد سمعت اقوال امحتب وحرددف
تلك الاقوال التى جرت مجرى الأمثال
انتظر الى مقابرهما
لقد تداعت جدرانها
ولم يعد لها اثر

كان لم تك بالأمس ! »

ثم يمضى العازف الكهل الإعمى فى افكاره الجريئة الجديدة يؤكد
شكوكه بدليل مادى بسيط هو ان احدا لم يعد من الموت ليخبرنا
بالحقيقة ..

« ان احدا لم يأت من هناك

ليخبرنا كيف امسوا

وليريح قلوبنا

حتى نرحل نحن الآخرون

الى المكان الذى رحلوا اليه

ولكن عازف القيثارة النصر المادية لا يؤمن بإمكان عودة مثل
ذلك الشخص الذى يريح قلبه بكشف حقيقة العالم الآخر . وان
مجرد تصوير عازف الانشودة بالعمى دليل على انه - وهو يمثل
الانسان المجرد - لا يمكن ان يعرف الحقيقة بل يعيش فى ظلام دامس
وشك دائم ، ولذلك فانه يبحث عن العزاء فى شىء آخر .. شىء دنيوى
بحث هو اغراق نفسه فى المتع والمذات :

وتشجع ياقلبى لتنسى

وانشد المتعة باتتباع رغباتك

وانت على قيد الحياة

زين بالازهار رأسك

وارتد الكتان الجميل

وانغمس فى الترف

تلك هى النعم الحقيقية التى منحها الالهة ! »

فيالها من دعوة جريئة تتحدى كل تراث الآباء والاجداد وتنكر
عقائدهم منذ دبت حضارتهم فى أرض الوادى ، وبالحق من صيحة
استهزاء وانكار لكل الأفكار المثالية التى اقيمت بوحيا المعابد
والأهرام واخترع من اجلها فن التحنيط وظهرت الكهانة بأسرارها

المعقدة ، والملوك الالهة بقوتهم الخارقة . ان عازف القيثارة يعلنها
ثورة جامحة على كل العقائد المثالية القديمة ، ثم يمضى مؤكدا
فلسفته الجديدة قائلا :

« وضاعف مما يبهجك

ولادع قلبك يذبل

اتبع رغباتك وماتراه طيبا

وزين شئوك في الأرض

ولا تتبع سوى وصايا قلبك

حتى يأتى يوم العويل عليك

حين لاتسمع القلوب الصم العويل

ولا يسمعه من كان في القبر !

وهكذا يصرخ انسان مابعد الثورة الشعبية بفلسفته المادية لأول

مرة في تاريخ البشرية ثم يختم انشودته بهذه الدعوة الجريئة .

ابتهج باليوم السعيد

فان احدا لاياخذ امواله معه

ولا احد يعود من حيث رحل

ومما يلفت النظر في لوحة انشودة عازف القيثارة ان العازف يرى

جالسا في مكان مرتفع يطل على اهرامات الدولة القديمة كانه يتأمل

تلك الحضارة التليدة التي خلفها الماضي ، والتي تقف صامئة بكفاء

كشواهد القبور وقد بدأت تمسها يد البلى ، اين هم هؤلاء الذين

شيدوا تلك الصروح ؟ اين هو ايمحتب اعظم مهندس في التاريخ

القديم ؟ ان الهرم المدرج اول بناء عظيم في تاريخ البشرية والذي

شيدته الملك زوسر قد بدأ يتآكل تحت ضربات الالف عام ، ولكن اين

هو ايمحتب ؟ اثر بعد عين ، وكذلك حرددف بن خوفو مشيد الهرم

الاكبر اين هو واين اسرته التي قهرت الزمن ؟ ان اهرامهم المهجورة

تقف صامته على حافة الصحراء تلفحها الرياح العاتية ولا تملك لهم

نفعا ، واين هم اصحاب كل هاتيك القبور المتناثرة في جنبات
الوادي ؟ تداعت جدران القبور ولا احد من اصحابها يعود ليخبرنا
بما رآه !

هكذا يكاد الشك يفك بعازف القيثارة .. انسان مابعد الثورة
الشعبية الهائلة انه يهز بيده القوية ضمائر المفكرين ويدعوهم الى
الثورة ضد العقائد المتوارثة ثم لا يلبث ان ينقلب الشك الى يقين في
الانسان وايمان بحيلته على الارض وضرورة ان تكون سعيدة
هنيئة ، فهذه هي القيمة المؤكدة الوحيدة ، وهذا هو صلب الفلسفة
المغربية في كل العصور .

ولكن هذا التفكير المادي ان لم تسانده - كما يقول برستيد -
نظرية شاملة تفسر الحياة تفسيراً هادفاً فانه يصبح مجرد محاولة
للهرب من معضلات الحياة واغراقها فقط في الترف المادي الدنيوي
كان لسان حاله يقول « فلنأكل ولنشرب ولنمرح فغدا سوف
نموت » !

اما النص الآخر لانشودة عزف القيثارة فقد عثر عليه في مقبرة
« نقرحتب » ، كاهن آمون في طيبة ، ويكاد يشبه تماماً في الفاظه
ومعانيه النص الموجود في قبر الأمير « انتف » ، فيما عدا بعض
الاختلافات اليسيرة مما يدل اولا على ان النصين يرجعان الى اصل
واحد ، وثانيا على ان هذه الانشودة كانت شائعة الى الحد الذي
يسمح باذخار تعديلات جزئية عليها .

يقول نص نقرحتب

ما هذا هذا الأمير الصالح

ان مصيره الطيب قد حلن

الاجيال تمر

منذ زمن الاله رع

والاجيال تجيء

ورع لا يزال يشرق في الصباح
ثم يغرب اتوم في مانو (الغرب)
والرجال تلقح والنساء يحملن
وكل انف يتنسم الهواء
ويطلع الصباح
وكل مولود يأخذ مكانه
تمتع بيومك ايها الكاهن الصالح
تنشق اجمل العطور طرا
وضع تيجان الزهر فوق راسك
وطوق بأزهار البشنين عناق احبك
حبيبك الجالسة الى جوارك
واستمع بالموسيقى والغناء
واطرح كل الهموم وراء ظهرك
ولا تذكر الا ما يبهج قلبك
قبل ان تصل الى شاطئ الصمت ،

وتعضى الانشودة في حث الانسلن على التمتع بيومه غير ملق بالا
الى العالم الآخر ، وتذكره بالمبيوت الخربة ، والقبور المتداعية ،
والآثار الدارسة ، ولكنها لا تنسى ان تحفه على ان يترك وراءه اثرا
طيبا بفعل الخير ، لالينال جزاء في العالم الآخر ، وانما ليبقى اسمه
طيما على هذه الأرض ويذكره الناس بالخير في المستقبل :

، اعط الخبز لمن لاحقل له

وبذلك تصنع اسما طيبا

للمستقبل .. ويبقى الى الأبد ! ،

ثم تنتهى الانشودة بنفس الدعوة الجريئة ..

، اشبع كل رغبتك

فلا احد يعود من حيث ذهب ! ،

الصراع بين المادية والمثالية

من الأرجح ان انشودة عازف القيثارة كانت من الأغاني التي تعزف من مجالس اللهو والمرح ، ولذلك لا يمكن اعتبارها من نصوص الفكر الرسمي ، ولكن ذلك لا يقلل من دلالتها على انتشار هذا الضرب من التفكير في ذلك العصر وإيمان أوساط الشعب به مما يجعل أثره أكثر عمقا وخطورة .

ومما يلفت النظر ان انشودة أخرى كانت منتشرة في نفس الوقت تقريبا تعبر عن فلسفة مخالفة تماما لتلك التي تعبر عنها انشودة عازف القيثارة ، ويبدو أنها كانت تمثل مدرسة أخرى تخالف المدرسة المادية التي ينتمي إليها عازف القيثارة وسائمه الحياة ، وكانت هذه الأغنية تنشد أحيانا بعد انشودة عازف القيثارة كنوع من الاعتذار عنها أو لارتضاء فريق آخر من الناس الذين يؤمنون بالعالم الآخر على النحو الذي تصوره العقائد القديمة ، وتقول هذه الانشودة (ترجمة سليم حسن) :

لقد سمعت تلك الأغاني التي في قبور الأزمان الغابرة ماذا يقولون
حين يمتدحون الحياة الدنيا ويحقرون من شأن عالم الموت
ولم يقفون هذا الموقف من أرض الخلود وهي العادلة حقا التي لا
اهوال فيها .

إنها تمقت الشجار
وليس فيها إنسان يحذر زميله
هذه الأرض التي لاعدو فيها
وكل أقاربنا ماكثون فيها منذ أول يوم في الدهر
وهؤلاء الذين سيعيشون بعد آلاف السنين
سيذهبون جميعا إلى هناك
ولا أحد سوف يبقى في أرض مصر
وليس هناك من لا يرد حوضها

ان بقاء ماعلى الأرض حلم لن يتحقق
والذى يصل الى الغرب
يقال له « اهلا بك سالما معافى »

وهذه الأنشودة تحمل ايضا مسحة التشاؤم التى كانت فيما يبدو
من سمات ذلك العصر المضطرب الذى انهارت فيه القيم القديمة ،
ولكنها تدعو الى الايمان بالعالم الآخر باعتباره الدار الباقية التى
ينتهى اليها كل البشر ، والتى توفر الحياة الحقيقية بلا أهوال او
خصوصيات وحزازات ونلاحظ ان هذه الأنشودة تكاد تذكر انشودة
عارف القينار بالاسم ثم تمضى فى تنفيذ فلسفتها وتنتهى الى رفض هذه
الفلسفة من أساسها وفى ذلك مايدل على وجود صراع صريح كلى
مستقرا بين المادية والمثالية فى ذلك العصر الموهل فى القدم .

الحاكم العادل

تجمع كل أدبيات الفترة التى اعقبت الثورة الشعبية حتى قيام
الدولة الوسطى ابتداء من تحذيرات الحكيم ايبور الى نبوءات
نفروروهو الى قصة الفلاح الفصيح التى أشرنا اليها فى غير هذا
المكان ، على ان صلاح الأحوال يتوقف على ظهور حاكم عادل يعيد
الأمور الى نصابها ويقضى على الظلم والفساد ، وقد كان ذلك من أهم
الآثار السياسية للثورة الشعبية ، واذا كانت تلك الثورة قد فشلت فى
ايجاد نظام مستقر للحكم الا انها نبهت الأذهان الى أهمية الحكم
العادل وربطت بين الحاكم او الملك وبين فكرة الإصلاح الاجتماعى .
خلافا لما كان عليه الوضع فى عهد الدولة القديمة حيث كانت
مسئولية الحاكم الاجتماعية لاثير الانتباه نظرا لاستتباب الأوضاع
الى حد كبير ، وكانت النظرة الى ملوك الدولة القديمة مرتبطة فى المحل
الأول بالدين ، فكان الملك يقدس باعتباره إلها سواء كان عادلا او
ظالما ، ولكن هانحن نرى فى عهد مايعد الثورة مدى ارتباط السلطة
بالمسئولية الاجتماعية لأول مرة فى تاريخ الفكر السياسى .

واشد مايتضح هذا الارتباط في « التعاليم الموجهة الى الملك مريكا
رع » من ابيه الملك « أخيتي » الرابع احد ملوك اهناسيا ، وهي
تحوى خلاصة فلسفته ومبادئه السياسية لينتفع بها ابنه في شئون
الحكم ، وتحمل هذه التعاليم مسحة واضحة من التواضع
والديمقراطية تدل على مدى تغير عقلية الملوك في عهد مابعد الثورة ،
فالمالك لم يعد ذلك الحاكم الجبار المتغطرس الذي يتعين على الجميع
ان يدينوا له بالولاء والطاعة العمياء باعتباره ظللا لله على الأرض ،
ولكنه اصبح خادما للشعب وراعيا للمقطيع كما يأمل الحكيم ايبور .
ان الملك خيتي في هذه التعاليم ينصح ابنه ان يتجنب الطمع ،
ويحضه على الخير والعدل بين رعاياه ليدهم ملكه ، فيقول .
« تحل بالفضائل حتى يثبت عرشك على الأرض

هدىء من روع الباكي

لاتظلم الأرملة

لاتجرد احدا من املاكه

ولا تطرد موظفا من عمله

ولا تغدر بزميل تلقى معك العلم »

ويستطرد قائلا :

« لاتكن فظا بل كن رحيم القلب

اجعل هدفك حب الناس

فالناس سوف يشكرون الله لأنه منحهم اياك

وسوف يمتدحون عهدك ويدعون لك بالصحة »

واكثر من ذلك يدعو الملك ابنه الى عدم التفرقة بين الناس على

اساس اوضاعهم الاجتماعية ، فيقول

« لاترفع ابن الرجل العظيم على ابن الرجل المتواضع بل قرب اليك

الانسان حسب كفاءته الشخصية »

وهو ينصحه ايضا بأن يهتم بالجيل الجديد من الشباب الذين

ينشأون في الأحياء المتواضعة ، ويمنحهم العطايا والهبات حتى يكونوا دعامة له في حكمه ، فيقول :

« ارفع من شأن الجيل الجديد لكي تحبك الرعية »

ان المدينة ملأى بالشبان المدربين حديثا الذين هم في حوالى العشرين من عمرهم .. اجعل من هؤلاء الشبان اتباعك وامنحهم الممتلكات وهبهم الحقول وانتمنهم على القطعان »

ويذكر الملك ابنه مريكا رع بأن مسؤولية الحكم ثقيلة ، وانه لايكفى ان يعتمد على وراثته للعرش ، بل عليه ان يتحلّى بالحكمة ووسيلته اليها هى القراءة ، والاطلاع على ماخلفه الاجداد من كنوز العلم والثقافة .

وهكذا احدث الثورة انقلابا شاملا في الفكر السياسى حيث اصبحت العدالة الاجتماعية مطلبا اساسيا للشعب ومسؤولية كبرى على الحاكم . غير ان هذا الانقلاب لم ينحصر في المجال السياسى وحده بل تعداه الى المجال الدينى فأوجد مايمكن ان نسميه بالديمقراطية الدينية .

الديمقراطية الدينية

عندما دمرت الثورة الشعبية المعابد والمقابر والتماثيل التى اقيمت للعظماء يبدو انها دمرت معها ايضا فكرة ارتباط الجزاء بالماديات ، فعندما عاد الدين الى سلطانه في النفوس بعد انحسار الثورة بما جرفته امامها من ركाम المعتقدات القديمة لم تعد فكرة الجزاء في العالم الآخر ترتبط بالمظاهر المادية التى تحيط بالمتوفى وانما برزت فضائل المتوفى وحدها باعتبارها الحكم على افعاله لا المقابر التى يشيدها والقرايين التى يقدمها .

هذه الفكرة النبيلة ظهرت لأول مرة في تاريخ البشرية في التعاليم الموجهة الى مريكا رع « التى ترجع الى اواخر العهد الأهناسى ، ففي هذه التعاليم نجد هذه العبارة الخالدة :

« فضيلة الرجل المستقيم خير عند الله من ثور يقدمه صانع
الآثام »

فهنا اعتراف رائع بالشخصية الانسانية واشراق لتلك الفكرة
الصادقة وهى ان الله لايفرق بين البشر طبقا لما يتمتعون به من ثراء
او ما يستطيعون تقديمه من قربانين ، وانما بالنظر الى فضائلهم
وتقواهم ، وهى نفس الفكرة التى قامت عليها كافة الأديان
السملوية .

ولأول مرة فى تاريخ مصر القديمة تشهد مصر مابعد الثورة على
الاقطاع الديمقراطية الدينية ، ففى هذا العصر اكتسب الفرد العادى
كافة الحقوق الدينية التى كانت وقفا على الملوك والعظماء ، ويبدو
ان الثورة حين قضت على هيبة الطبقة العليا ودمرت مقابر العظماء
وتماثيلهم وقر فى اذهان الناس ان الملوك والعظماء ليسوا الالهة
اقوياء وانما هم بشر ضعفاء لا يستطيعون حماية قبورهم
وتماثيلهم ، ولم يعد هناك مبرر لأن يتمتعوا وحدهم بالحقوق
المقدسة وعلى رأسها حق الخلود فى العالم الآخر ، واصبح كل انسان
من حقه ان يتمتع بالخلود بعد موته . وان يجازى على عمله فى
الحياة الدنيا بما قدمت يداه من خير او شر لا بما كان يملك من جاه
ومتاع .

وحتى الديانة الرسمية السائدة على مستوى الشعب والدولة
تحولت من عقيدة رع الى عقيدة اوزيريس ، وكان ذلك دليلا على ان
الشعب بدأ يكسب قوة ونفوذا لم يعرفهما من قبل ، وقد كانت عقيدة
رع مستمدة من التطلع الى الشمس وعقيدة اوزيريس مستمدة من
الحياة فى الزراعة والخصب وهكذا يمكن القول بان عقيدة رع هبطت
من السماء وعقيدة اوزيريس نبتت من الأرض ، وكانت عقيدة رع
اكثر غموضا وتعقيدا وتتطلب قدرا كبيرا من الدراية والعلم لانها
تعتمد على التطلع الى السماء ومتابعة حركات الشمس والكواكب

والنجوم ولذلك كانت عقيدة رع هي عقيدة الخاصة ، اما عقيدة اوزيريس فكانت اكثر قربا الى ادراك الناس البسطاء لانها اسطورة جميلة واضحة تستمد مغزاها من الصراع اليومي الظاهر بين الخير والشر ، ولا يحتاج فهمها الى عقليلت مدربة تدريبا خاصا . ولذلك كانت اكثر قربا الى قلب الشعب .

والى جانب ذلك كانت عقيدة رع « باهظة التكاليف » ، اذ ان الذى يتمتع بمملكة رع بعد الموت هو من يستطيع الاحتفاظ بجسده المادى رغم عوامل الفناء مما كان يتطلب امكانيات كبيرة لايقدر عليها الفرد العادى كبناء مقبرة منيفة تصمد لعوادم الزمن ، وتكديس الاواني والاطعمة والتمائيل ليستخدمها المتوفى فى العالم الآخر وقد يتطلب الامر ايضا وجود عدد من المراكب الجنازية ليستخدمها المتوفى فى رحلته وراء مركب رع فى العالم الآخر ، كل هذه الامكانيات والمستلزمات لم يكن يقدر عليها بالطبع سوى الملوك والعظماء واصحاب اليسار ، اما عامة الشعب الذين لايقدررون على تكاليفها فمن الطبيعى ان يحرموا من مملكة رع فى العالم الآخر اى انها كانت مملكة ارستقراطية بمعنى الكلمة .

ولذلك فان انتصار ديانة اوزيريس بعد الثورة يعد دليلا على ظهور قوة الشعب وقدرته على الضغط فى سبيل تحقيق الديمقراطية الدينية فهذه الديانة ليست وقفا على الاثرياء واصحاب النفوذ والجاه بل هي تكافئ المحسن باحسانه ، وتعاقب المفسد باساءته دون اعتبار لجاه او نفوذ ، والمحكمة التى يرأسها اوزيريس فى العالم الآخر والتى تزن قلب الميت امام ريشة العدالة « ماعت » خير دليل على ذلك .

وهكذا اصبحت مملكة الله تتسع لأول مرة للغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، والعظيم والبسيط ، دون تفرقة بينهم إلا بأعمالهم ، وكان من الطبيعى ان تنعكس هذه الفكرة الديمقراطية

عن العالم الآخر على الحياة الدنيا كذلك ، وهكذا أصبحت الديمقراطية الدينية هي اساس الديمقراطية المدنية او المساواة بين البشر .

يقول رع في احد نصوص التواييت :
« لقد خلقت الرياح الأربعة من اجل ان يستطيع كل انسان ان يتنفس مثل اخيه » ..

« و خلقت الانهار العظيمة كي يستخدمها الفقير والسيد العظيم ..

« وجعلت كل انسان مثل اخيه ، ونهيتهم عن فعل الشر ، ولكن قلوبهم هي التي لم تفعل ما امرت به » .

هنا نجد آثار المساواة القائمة في حق الحياة بين البشر ، وليس غريبا ان تكون دعوات المصلحين الاجتماعيين قد اثمرت وادت الى اقرار حق الشعب في المعاملة الطيبة ، والى بث افكار العدالة والديمقراطية في الفكر السيلسي والديني وارغام الحكام والملوك على احترام حقوق رعييتهم والعدل بينهم ، وقد رأينا في التعاليم الموجهة الى مريكا رع كيف كفى الملك ينصح ابنه بالعدل بين الرعية وعدم التفرقة بين الناس بسبب ثرائهم او جاههم وكان ينصحه قائلا :
لاترفع ابن العظيم على ابن الرجل البسيط ، ولكن قرّب اليك الرجل حسب كفايته الشخصية ،

وعندما قامت الدولة الوسطى كانت فكرة العدل الاجتماعى قد استقرت تماما واصبح ينص عليها في مراسيم تعيين الوزراء انفسهم يقول احد هذه المراسيم الملكية :

« انظر .. ان الوزارة ليست حلوة انها مرة

ان الوزير هو النحاس الذى يغطى ذهب سيده
انظر .. ان الوزارة ليست مجرد اظهار الاحترام للأمرء

والمستشارين ، وليس معناها ان يصنع الوزير لنفسه عبدا من الناس

انظر .. عندما يأتى اليك صاحب شكوى من مصر العليا او مصر السفلى او من اى مكان فى البلاد عليك ان تراعى ان كل شىء يجرى طبقا للقانون والعرف المتفق عليه ، وان تعطى لكل رجل حقه ، لأن كل ما تفعله لا يمكن ان يبقى فى طى الكتمان .

ثم يمضى المرسوم فى ابلاغ الوزير تفصيلا كيف تكون تصرفاته حيال القضايا المختلفة التى تعرض عليه ، ويحذره من اقدام على الظلم لاي سبب من الاسباب حتى لو كان غرضه من ذلك الظهور بمظهر العدل ، فهو يحذره من خطأ وقع فيه وزير قديم من عصر الاقطاع يدعى خيتى ، فيقول :

« احذر ما فعل الوزير خيتى ، لقد قيل انه ظلم اناسا من اقرابه المصلح قوم غرباء خشية ان يقال عنه انه ارضى اقرابه بدون وجه حق »

ويمضى المرسوم الملكى يأمر الوزير قائلا :

« ارع الذى تعرفه تلمعا كالذى لاتعرفه ، والذى هو قريب منك كالذى هو بعيد عنك »

وهكذا تحقق حلم المصلحين الاجتماعيين بملك عادل يستخدم عمالا عادلين .. تحقق حلم ايبور .. ونغر وهو .. والفلاح الفصيح خونانوب ، وتحققت احلام الشعب فى العدالة الاجتماعية والمساواة والحقوق الدينية مع عودة الامور الى الاستقرار بعد اول ثورة شعبية فى التاريخ ضد مظالم الاقطاع .





لم يكونوا مجرد عبدة أوثان !

لعل من أكبر المطاعن التي توجه إلى مصر القديمة أنها لم تعرف الاله الحق وإنما عبدت خليطا من الآلهة. والربات من ذوى الأصول الكونية أو الحيوانية أو البشرية. وإن المصريين القدماء كانوا يعبدون الأصنام ، أو كما أعرب أحد المثقفين الذين دخلت معهم في معركة فكرية منذ ربع قرن عن عجبه واستنكاره لدفاعى عن الحضارة المصرية والتاريخ الفرعونى بدعوى أن « المصريين القدماء كانوا أمة بائدة من الوثنيين ولا يستحقون بالتالى شرف التقدير أو مؤونة الاهتمام بهم إلا بمقدار ما تستحق ذلك قبائل الكفرة من عرب الجاهلية قبل الاسلام !

وحسب هذا « المثقف » أنه أرضى ضميره وعمل ما عليه دفاعا عن « العروبة والاسلام » فى مواجهة دعاة « الفرعونية الحديثة » الذين تنكبوا الطريق وضلوا عن « القومية العربية » !

والحق أن شبهة الوثنية والكفر من أشد ما الحق جهلا بالمصريين القدماء ، وهى شبهة محقت فى أعين الكثيرين كل الأمجاد التى حققها المصريون الأوائل فى السياسة والفكر والصناعة والحرب وكل ألوان الحضارة . واندكر فى هذا المجال ما كتبه المرحوم الدكتور حسين فوزى فى كتابه « سन्दباد مصرى » حين كان فى معية أحد الأمراء الشرقيين فى زيارة للمتحف المصرى ، إذ التفت الأمير الزائر إلى تمثال فرعونى وسال مستنكرا : « هل هذا فرعون ؟ » فلما أجيب بالإيجاب بصق الأمير على التمثال وأشاح عنه بوجهه قائلا : « إذن هذا كافر ؟ »

ولكن هذه الشبهة غير صحيحة على إطلاقها ، ولا يصح أن يوصف المصريون القدماء بالكفر قياسا على ما بلغه الفكر الدينى من الرقى فى ضوء الرسائل السماوية اللاحقة ، فالدين كما أوضح المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد خضع لمبدأ التطور ، وكان من المحال على الشعوب البدائية أن تصل فى الفكر الدينى إلى منتهاه التوحيدى فى زمنها ، فالعقل البشرى لم يكن قد بلغ مرتبة تؤهله لذلك بل كان مازال فى طور الطفولة الذى تناسبه الأساطير والمحسوسات بقدر عدم قدرته على التجريد وإدراك المعنويات . على أن المصريين القدماء قطعوا رغم ذلك شوطا كبيرا على الطريق الصحيح نحو معرفة الله الحق واستشراق جانب كبير من الأفكار الرئيسية التى جاءت بها الأديان السماوية فيما بعد ومنها فكرة الحساب فى العالم الآخر ووزن الحسنات والسيئات ، والجزاء تبعا لذلك بالجنة أو الهلاك ، وهى الفكرة الأساسية فى كل الأديان بعد فكرة وحدانية الخالق ، وهذه أيضا استشرفها المصريون القدامى خاصة فى تجربة اخناتون . وعلى ذلك رايت أن أقسم هذا البحث إلى ثلاثة أجزاء أساسية :

- ١ - مبدا التعددية الوثنية الذى شاع فى الفكر الدينى المصرى .
- ٢ - فكرة وحدانية الإله التى دعا إليها اخناتون .
- ٣ - الأفكار الأساسية عن خلود الروح وخضوعها للحساب عن أعمالها فى العالم الآخر .

ومرجعى الأساسى فى هذه الأبحاث كتاب THE East when egypt ruld الذى قمت بنقله إلى اللغة العربية مؤخرا ، ولم يظهر بعد فى طبعته العربية .

★ ★ ★

أولا : التعددية الوثنية لدى المصريين القدماء :

تصور الإنسان القديم أن الإله مرتبط بالاقليم الذى يعبد فيه ويجب أن يرجع إليه باعتباره الحامى لهذا الإقليم كالسيد الاقطاعى فى منطقته . وهذا وضع طبيعى فى سلم التطور ، فالناس لم يصلوا إلى نظرة كونية عالمية بعد ، وإنما كل عالمهم إقليمهم الذى يعيشون فيه .. مشاعر العبادة لديهم صادقة ، ولكنها محدودة ، فلا ينبغى أن يطلب من إنسان محدود أن يفكر فى اللامحدود ، وإنما من المفهوم أن يكون تفكيره محدودا بظروفه .

وهكذا عبد كل إقليم إلهه الخاص به ، ولم يتدخل فى شئون الأقاليم الأخرى ، فكل إقليم وشأنه الخاص فى عباداته ، وهناك تعايش سلمى بين الآلهة المختلفة كالتعايش السلمى بين الأقاليم ، مما جعل فى الوثنية سماحة فكرية لم تعرفها الديانات التوحيدية فيما بعد .

وكانت صلاحية كل إله مقصورة على المدينة أو الإقليم الذى يعبد فيه ولا يملك أية قوة خارج حدود منطقته ، وكثيرا ما لم يكن الإله له اسم خاص وإنما يحدد بالإشارة إلى المكان الذى يعبد فيه ، ففى امبوس يشار إليه باسم « اللامبوسى » وفى إدفو يسمى « الأدفوى » ، ولكن كانت هناك أحيانا أسماء محددة للآلهة لا نعرف معناها على وجه الدقة ، ففى منف يدعى الإله « بتاح » وفى طيبة « منتو » وفى قفط « مين » وفى عين شمس « رع » و « أتوم » ، بالإضافة إلى أسماء أنثوية مثل « صخور » فى دندرة و « نيث » فى سايس و « سخمت » فى منف . ويضمها جميعا مجمع الآلهة « البانيثون » .

وبالطبع ترتبط قوة الإله بمدينته ، فإذا قوت المدينة وتوسعت ازداد إلهها قوة وانتشارا حتى ظهرت الآلهة القومية التى لا يقتصر نفوذها على المنطقة التى ظهرت فيها . وهكذا عندما صارت مصر

تتكون من مملكتين (مصر السفلى ومصر العليا) أصبح حورس هو الإله القومي لمصر السفلى ومقره « بيديت » ، وصار ست إله مصر العليا ومقره « أوميوس » ، وتعكس أسطورة أوزيريس والمعارك التي قامت بين حورس وعمه ست ذكرى الحروب والصراع الطويل بين الشمال والجنوب لتحديد من له السيادة عن الأرضين .

ولم تكن الحروب هى الوسيلة الوحيدة لانتقال الآلهة من مناطقهم ، بل كان ذلك يتم سلميا أيضا ، فقد يحدث أن يهاجر سكان منطقة ما إلى منطقة جديدة فيحملوا معهم إلههم المحلى ، أو يفتتن سكان منطقة ما بقوة إله أجنبي في حماية جماعته أو وفرة الخيرات التى يسبغها عليهم فيقوموا بالحجيج إليه فى ضريحه ويقدموا له القرابين أو يقيموا له معابد جديدة حيث يقيمون وبهذه الطريقة ينتقل الإله أحيانا إلى مدينة لم ينشأ فيها أصلا ويغتصب مركزا الإله المحلى فيها ويصبح هو الرب المعبود للمينة . وهكذا حصلت « نيت » ربة سايس على ضريحها فى إسنا ، وعيد خنوم وموطنه الأصلي هيبيسيس فى ائينوى واسنا والفانتين .

وكان يحدث أن يشتهر إله محلى بصفة معينة فتتمد شهرته وعبادته فى طول البلاد وعرضها بهذه الصفة ، فالإله « مونتو » ذو رأس الصقر أصبح إله الحرب ، والإله « مين » إله قفط صار إله للمسافرين فى الصحراء و « بتاح » إله منف حيث نشأ الفن المصرى المميز صار سيدا لكل الفنانين وعمال التعدين والحدادين ، و « تحوت » إله هرومبوليس نسبوا إليه اختراع الكتابة الهيروغليفية وأصبح إله للمعرفة وربما للكلمات المقدسة والحكمة ، أما الإله التمساح « سوبك » فكان من الطبيعى اعتباره ربا للماء فى كل مكان .. وهكذا .

وكانت الآلهة المحلية تتزاور فيما بينها وتعقد الصداقات طبقا للزيارات والصداقات التى يأتيتها سكان الإقليم الذى تعبد فيه .

وكانت الآلهة مثل الناس تقزاور فيما بينها في أيام معينة ، وكثيرا ما كان الأرباب الغريباء يحصلون على أمان خاصة بعبادتهم في معبد إله المدينة الأصلى ويحيطون به يشاركونه المدايح والعطايا التي يقدمها عباده .

واجهد الكهنة أنفسهم في عقد الروابط والعلاقات بين الآلهة المختلفة تحقيقا لمنافع كثيرة يرجونها من وراء ذلك ، لذا لم يكن من النادر أن يعترفوا بربة ما كزوجة للإله الرئيسى في المدينة ويضيفوا إليهما إلهة ثالثا كابن لهما فمثلا نجد في الكرنك بطيبة الإله الرئيسى آمون تشاركه في العبادة زوجته الربة « موت » وابنه إله القمر « خونسو » ، وفي منف حصل الإله « بتاح » على « سخمت » كزوجة له و « نفرتم » ابنتهما ، وفي أبيدوس كان يوجد أوزيريس وزوجته إيزيس وابنتهما حورس كثالوث أو أسرة مقدسة .

وكثيرا ما كانت الآلهة تصور في شكل حيوانى بحث ، فالإله سوبك في صورة تمساح ، والإله منديس في صورة كبش ، وتحت في صورة الطائر إيبس ، وخنوم في شكل كبش ، وحورس في شكل صقر أو نسر ، وخصمه ست في شكل وحش خرافى ، والربة الحامية لبوتو كانت ثعبانا ، وربة انخاب مثل الربة مون في طيبة اعتبرت نسرا بينما حتحور ربة دندرة أخذت شكل البقرة .

وليس ذلك دليلا على أن الفراعنة كانوا يعبدون هذه الحيوانات في حد ذاتها ، وإنما هذه الأشكال مجرد رموز للآلهة للتعريف بها وكأثر باق من آثار الطوطمية فيما قبل التاريخ ، وهذا شيء لم تنج منه جميع الشعوب البدائية ، فالساميون الأوائل كانوا يقدسون الأشجار والأحجار والحيوان ، ونعرف من الأساطير الإغريقية كيف تجلى هرمس في هيئة كومة من الأحجار وأبوللو في شكل نذب وزيوس في سحابة وارتيميس كدب وهيرا كبقرة ويعرف كل دارس للميثولوجيا الكلاسيكية أن « الحيوان المقدس » لآثينا هو البومة ، ولزيوس النس .

غير انه عندما تدهورت الحضارة المصرية في اواخر ايامها ، فقدت هذه الرموز طابعها الرمزي ، واصبحت في ذهن البسطاء تدل على الحقيقة في حد ذاتها ، فصاروا يعبدون ضروب الحيوان لذاتها وليست كرموز لقوى عليا مجهولة ؛ وهو ما لاحظته الإغريق والرومان الذين عرفوا مصر في عصور اضمحلالها الأخيرة ، وسمحوا لأنفسهم بحرية التعبير عن احتقارهم وسخريتهم إزاء مثل هذه الافكار الدينية البدائية التي يعتقد فيها المصريون .

ففي المرحلة المتأخرة حين فقدت الديانة المصرية القديمة كثيرا من حيويتها الداخلية واصبح الناس متعلقين بقشورها الخارجية فحسب ، تطرفوا في عبادة الحيوان إلى حد أنهم كانوا يعتبرون كل حيوان مفرد يفترض أن الإله يظهر في شكله مقدسا ومعبودا ، وكانت هذه الحيوانات تعتبر حصينة وقتل أى منها في مكان عبادته جزاؤه الإعدام ، وبلغت الحماسة الدينية في تلك الفترة أقصاها بحيث أصبح من المعتاد تحنيط كل واحد من الحيوانات المقدسة عند موته ودفنه باحتفال في جبانات خاصة مكرسة لهذا الغرض .

وقد اتخذت خطوة متقدمة عن الفيتشية الفجة في عصر ما قبل التاريخ عندما بدأ المصريون يصورون إلهتهم في شكل آدمى ، ففي ذلك الوقت أصبح للإله شكل آدمى ، ويرتدى نفس الملابس التي يرتديها المصريون وقد يحتفظ بشكله التوتمي في منطقة الرأس فحسب ، فاصبح سوبك رجلا له رأس تمساح ، وخنوم رجلا له رأس كبش ، وتمثل تحوت في شكل إنسان له رأس الطائر إيبيس ، وحورس له رأس صقر ، بينما سخمت أصبحت امرأة لها رأس لبؤة .

★ ★ ★

الهة الطةبة

وبالإضافة إلى الالهة المحلية التى يقتصر نشاطها على نطاق محدود فوق الارض كانت هناك آلهة عظيمة أخرى تعبر عن قوى الطبةعة وتشمل العالم كله مثل السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والنيل ، فالسماء كانت « الرب الأكبر » وتصورها فى شكل صقر ينشر جناحيه الحاميين على الأرض أى مصر ، وعيناه المقدستان هما الشمس والقمر عندما يفتح أحدهما يكون النهار وإذ يغلقها ويفتح الأخرى يأتى الليل . والنجوم متصلة بجسمه ، والريح هى أنفاسه ، والماء عرقه ، ونشأت عديد من المعتقدات والأساطير تحاول أن تفسر بدء الخلق وقوى الطبةعة .

ومال تطور الأفكار الدينية عموما إلى إيجاد نوع من العلاقة بين الالهة المحلية وقوى السماء والطبةعة ، فقد كان الكهنة ينتهزون كل فرصة ممكنة لرفع شأن أربابهم المحلية ، وهكذا أصبح الصقر حورس الذى تحول عندئذ إلى إله قومى موحدا مع إله السماء الذى كان يعتبر صقرا أيضا باسطا جناحيه وتسمى حور - أختى أى « حورس الأفق » بالإضافة إلى ذلك تم توحيده مع « رع » وأصبح بمثابة إله الشمس رع - حور - أختى . وكانت النتيجة الطبةعية أن حصل رع أيضا على شكل حورس وطبقا لذلك صوروه كملك فى هيئة بشرية برأس صقر يحيط بها قرص الشمس مع ثعبان الصل على جبينه .

وبنفس الطريقة أصبحت الالهة المحلية الأخرى مرتبطة بالشمس وحصلت بالتالى على قرص الشمس والصل المقدس كعنوان للتمييز مع احتفاظها بكل سماتها القديمة ، ونسجت الأساطير لتفسير هذا التزاوج أو الاقتران ، وأصبحت النتيجة الحتمية هذا الارتباك الهائل فى الأفكار المتشعبة بل والمتناقضة فى الديانة المصرية ، وبذلت جهود فى الديانة للتمييز على الأقل بين مختلف آلهة الشمس بعضها

والبعض ، فاستدت وظيفة معينة لكل منها ، وطبقا لذلك أصبح « خبرى » - إله الشمس في شكل جعران - بمثابة شمس الصباح ، وعبد « أتوم » باعتباره شمس المساء ، وهكذا ... ومع ذلك لا يبدو أن الكهنة المتعلمين قد نجحوا مطلقا في وضع نظام شامل للديانة المصرية أو جاءوا بتفسير واضح لتخطيها .

تعقيدات الكهنة

بل إن الكهنة أنفسهم كانوا يستفيدون شخصا من هذا الاضطراب الهائل في الديانة والعقائد ، إذ تمس في هذه الحالة الحاجة إليهم ليقوموا بمهمة الشرح والتفسير والطقوس المختلفة لكل إله لقاء أجر مادي يتلقونه من العابدين الانتقياء : وبالتأكيد لم يكن من العسير على أى عقل ذكى أن يتوصل بشئ من الصفاء والجهد والتجرد إلى نتيجة منطقية هي ان عبادة مجموعة صغيرة من الأرباب أو حتى إله واحد هي الأجدر بالاتباع دون هذا الخليط الشائن من المعبودات المتناقضة ، ولكن من ذا الذى يملك الشجاعة لوضع هذه النظرية موضع التطبيق ويركن على الرف العبادات القديمة ويستبدل مكانها عبادة جديدة ؟ إن مثل هذا العمل كان من شأنه أن يثير عليه كل كهنة مصر دفاعا عن حقوق ألتههم وامتيازاتهم الخاصة هم أنفسهم ، وأكثر من ذلك كيف كان يمكن للكتلة الكبيرة من الشعب التى تنظر باحترام بالغ للآلهة القديمة لمواطنها وليست لديها أدنى مصلحة في تحقيق النظام الدينى أن تتلقى إعلانا بأن سلطة إلهتها الحامية قد زالت وحل محلها إله آخر عليهم أن يتقدموا له بصلواتهم وقرابينهم ؟

★ ★ ★

ثانيا : توحيد أختاتون

ومع ذلك ، ورغم كل الصعوبات والمخاطر ، عرف تاريخ الفكر الدينى المصرى ذلك الإنسان الشجاع الذى يعنى حقيقة الوجدانية بصراحة وقوة غير أبه بما يجره عليه ذلك من مشاكل وتعقيدات . ذلك الإنسان هو أختاتون الذى وصفه كثير من المؤرخين بإمام الموحدين وأول من دعا إلى وحدانية الخالق وكفر بتعدد الآلهة . ولم يكن أختاتون رجلا عاديا وإنما كان فرعوننا يجلس على عرش أبائه واجداده فراعنة الأسرة الثامنة عشرة الذين فتحوا معظم اجزاء العالم المعروف آنئذ ، وكونوا امبراطورية مصرية تمتد من اعماق النوبة إلى اعالي الفرات ، وتدفقت المغنم والثروات عليهم حتى بلغت مصر فى عهدهم قمة الثراء والقوة بما يتبعه ذلك الترف والوثوق بالذات من الرغبة فى المحافظة على الوضع الراهن مادام يتيح كل هذا المجد وهذه السعادة .

غير أن أختاتون الذى كان يدعى امنحتب الرابع رفض كل ما يتيح هذا الوضع من مجد وفوائد مادام أنه قائم على الزيف المتمثل فى تعدد الآلهة .

ومن المؤكد أن الجذور الأولى لوحداية أختاتون ترجع إلى التعليم الذى تلقاه صغيرا فى هليوبوليس (أون) ، فقد كان كهنة أون يرون أن إله الشمس هو أعظم الآلهة وهو الخالق والحافظ للعالم ، وليس له كفؤا أحد ، وإنه ليس معبودا عاما فحسب بل المعبود الوحيد للناس ، وإن الآلهة الأخرى ليست أكثر من أشكال أو تجليات لإله الشمس نفسه ، كان هذا اعتقادهم من الأزل (مما يدل على رسوخ فكرة الوجدانية فى الديانة المصرية) وزادت الفكرة رسوخا لديهم نتيجة للقوة الساحقة التى تمتع بها إله الشمس (رع) منذ أقدم العصور ، وخاصة فى زمن الدولة القديمة أعظم مرحلة فى تاريخ

مصر ، غير أن كهنة أون صدموا بما قدهورت إليه أحوالهم في زمن الدولة الحديثة أو بالتحديد في عهد الأسرة الثامنة عشرة التي تعبد « آمون » إله طيبة وتنسب إليه وهذا طبيعي - الأمجاد والفتوحات التي تحققت في عهدها ، ونتيجة لذلك ارتفع « آمون » إله طيبة الذي كان منذ امد قصير لا يتجاوز قرنا من الزمان إلها محليا غامضا إلى مرتبة ملك الآلهة والإله الرئيسي للامبراطورية المصرية العالمية ، وترتب على ذلك - وهذا طبيعي أيضا - انهيار الهدايا على كهنة آمون الطموحين ، فأحرزوا الثروات الضخمة والأوقاف الزراعية الهائلة والنفوذ الأعلى لدى البلاط وفي البلاد ، كل هذه الأشياء أثارت حسد وغضب وكراهية كهنة « آمون » القدماء ، واعتبروا أن كل قطعة أرض يكسبها آمون تمثل في المقابل انتقاصا من ملكية رع وثروته وكل هيكل يقام لآمون يمثل خسارة في قوة إله الشمس ونفوذه ، ومن المحتمل أن أختاتون في شبابه المبكر شارك في الدائرة الداخلية لعبادة هالة الشمس « آتون » وصار الكاهن الأعلى لهذا الإله قبل أن يشترك في الحكم مع أبيه .

وفور تتويج امئحتب الرابع مشاركا في الحكم مع أبيه أقدم على الدعاية للإله الجديد آتون (قرص الشمس) في كل انحاء البلاد ليجعله إلها مركزيا عاما في تحد واضح لإله آبائه « آمون » فأعلن نفسه صراحة في السجلات الرسمية « الكاهن الأول » لآتون ، وأمر بأن يقام له معبد جديد بديع في طيبة بجوار معبد آمون بالكرنك ، كما أقيمت المعابد لآتون في منف وغيرها من المدن ، ولكن ظل هناك شيء ينتقص الإله الجديد وتتمتع به غالبية الآلهة القديمة منذ أقدم العصور ، ذلك هو تخصيص إقليم لعبادته هو وحده يحكم فيه كسيد ويعبده فيه سكانه باعتباره حاميه الأكبر ، وهكذا أصدر امئحتب الرابع في السنة الرابعة من حكمه - أى في مرحلة مبكرة من

مشاركته في الحكم مع أبيه - مرسوما بتخصيص مكان لعبادة أتون في السهل المستوى الكبير الذي يعرف الآن باسم « العمارنة » نسبة إلى القبيلة البدوية التي سكنت فيه في العصر الحديث ، ويقع في منتصف المسافة تقريبا بين طيبة ومنف ، واطلق على الإقليم الجديد اسم « اخيتاتون » أى « أفق أتون » ، وأصبح بمثابة ملكية شخصية للإله الجديد بكل مدنه وقراه وحقوقه وقنواته وقطعانه وفلاحيه ، ولم يكن هذا الإقليم مخصصا لأى إله أو إلهة أو أمير أو أميرة ، أى لم يعبد فيه إله آخر من قبل .

واقدم كل اتباع الملك وخدمه وموظفوه على الاقتداء بسيدهم فاعتنقوا العقيدة الجديدة رغم أنها لم تدخل شغاف قلوبهم ، ولكن بغض النظر عن الحماية التي أبداها امنحتب الرابع لإلهه إلا أنه لم يقدم في أول الأمر على الوصف بعبادة آمون وغيره من الآلهة القديمة . ولكن الأمر لم ينطل على كهنة البلاد فجابهوه بأشد المقاومة وخاصة كهنة آمون في طيبة الذين كانوا يدركون تماما ما وراء ذلك من انتقاص لقدرهم وانتكاس لمركزهم وضمور لأرباحهم ، فقاوموا هذا الاتجاه الجديد بأقصى ما يستطيعون ، ولكن هذه المقاومة لم تثبط الملك الشاب بل واصل إدخال عبادة ربه في شتى أنحاء البلاد ، وفي الحقيقة كانت هذه المقاومة بمثابة مهماز يثير حميته الدينية يدل على ذلك أنه أقرن اسمه الرسمي بعبارة « الذى يحيا على الحقيقة » وهذه ليست عبارة جوفاء وإنما تشتمل على عقيدة راسخة فحواها أن عقيدته وحدها هي الحقيقة وغيرها ما هي إلا عقائد زائفة ، ثم اتبع الباحث عن الحقيقة تعاليمه إلى نتائجها المنطقية ، فإذا كان جميع الأرباب مجرد تجليات مختلفة لنفس الإله إذ يجب إدماجهم جميعا فيه حتى يكون الإله الواحد « أتون الحى » هو محل العبادة الوحيد .

وهذا ما اعلنه صراحة في السنة السادسة من حكمه فقد قرر ان تكون عبادة أتون هي الديانة الرسمية للدولة في كل أنحاء الامبراطورية بما تضمنه من أسويين ونوبيين وامر بإغلاق معابد الآلهة الأخرى في كل مكان ومصادرة ممتلكاتها وتدمير تماثيل الآلهة القديمة ومحو صورها من نقوش المعابد وإزالة أسمائها تماما . وتركز الاضطهاد الشديد على أمون وعائلته ليس فقط في المعابد بل حتى في غرف المدافن الخاصة كلما كان هناك سبيل لدخولها ، وحرم استخدام اسم « أمون » بالتحديد ، فكل من يحمل اسما يحتوى على لفظة « أمون » أجبر على تغييره ، وكان الملك نفسه أول من فعل ذلك فتخلّى عن اسم امنحتب (أمون راضى) الذى أعطى له عند مولده واسمى نفسه أخناتون (المفيد لآتون) وحتى اسم أبيه امنحتب الثالث وسلفه امنحتب الثانى كانا يمحيان من على الآثار لأنهما يحويان ذكر أمون البغيض .

وبعد ذلك قرر أخناتون أن يجعل « أخيتاتون » مقره الدائم في المستقبل ، فإن العاصمة القديمة طيبة بارتباطها الطويل بأمون لم تعد المكان المناسب الذى يمكن أن تمارس فيه عبادة الإله الجديد بما تتطلبه من هدوء وحماسة ، وشمر أخناتون واتباعه عن سواعد الجد لبناء وتعمير المدينة الجديدة بما تضمنه من قصور ومعابد وحدائق ومقابر ، وبعد سنتين فقط تمكن أخناتون من القيام بجولة احتفالية لافتتاح المقر الجديد لحكمه ، فطاف بكل أنحاء المقر المقدس لآتون في عربته المذهبة ، وكان يتوقف لدى كل نصب كبير على الحدود ويقسم أن لا يبرح هذه الحدود إلى الأبد .

★ ★ ★

مدينة أختاتون

وفي العام السادس من حكمه انتقل اخناتون إلى العاصمة الجديدة « أختاتون » واتخذ مقره في القصر الرائع الذى أقامه بالقرب من النيل ، وكان المعبد الرئيسى لأتون متصلا اتصالا وثيقا بالقصر الملكى . وفي المنطقة الجنوبية من المدينة أقام الملك لنفسه وزوجته نفرتيتى وابنتهما الكبرى مريئاتون حديقة ساحرة كبيرة مزودة بالبحيرات الصناعية وأحواض الزهور وأجمات الأشجار وأنواع أخرى من المبانى منها جناح صيفى ومعبد صغير لأتون ومنازل للحراس ، وخطط بنفسه المدينة الجديدة بما فيها من الأحياء الراقية التى تشققها الشوارع العريضة تقوم على جانبيها فيلات كبار المسؤولين والحاشية وأحياء شعبية يفصلها عن بقية المدينة سور وتتميز بالحارات الضيقة والبيوت الصغيرة حيث يقيم العمال الذين يحتاج إليهم العمل فى إنشاء القصور والقبور .

فى هذه المدينة الجميلة المكرسة للإله الواحد « آتون » عاش اخناتون بعد أن قام بهجرته الأبدية من طيبة ، وهناك عكف على عبادة إلهه الواحد الأحد خالق كل شيء والمهيمن على كل شيء والذى تسيّر المقادير والأحداث بقوته ومشيبته وتشمل قدرته كل ما فوق الأرض وتحت السماء ، فماذا كان يقول فى صلواته ؟

★ ★ ★ .

أنشودة أتون

إن أفضل إجابة على هذا السؤال قد نجدها في أنشودة الثناء الكبيرة المنقوشة على جدران مقبرة « آى » والتي من المحتمل أن يكون واضعها هو الملك نفسه ، وفيها يمجّد أختاتون إلهه أتون باعتباره الإله الوحيد الأوحد خالق كل أشكال الحياة وصانع العالم وحاميّه

تقول بعض فقرات الأنشودة :

« إنك تتجلى في أفق السماء

يا أتون الحى يا من كنت أول الأحياء

إنك تطلع في الأفق الشرقى وتملأ كل الأرض بالجمال

إنك لجميل وعظيم وباهر ورفيع في كل مكان

إن أشعّتك تحتضن الأرض إلى آخر حدود ما صنعت »

ثم تمضى الأنشودة فتتحدث عن أثر أتون في مخلوقاته واحتفاء

هذه المخلوقات به رغم اختلاف أجناسها وأنواعها .

« عندما تظهر في الفجر وتشتع في فلك النهار

فإنك تطرد الظلام وتبثّ أشعّتك

عندئذ يبتهج القطران ويصحو الناس لأنك أيقظتهم .

إنهم يغسلون أطرافهم ويرتدون ثيابهم

ويرفعون أيديهم ثناء عليك لأنك أشرقت

وتنشغل كل مخلوقات الأرض في أعمالها

الوحوش تمرح في المراعى

والأشجار والنباتات تزهر بخضرتها

والطيور تندفع من أعشاشها وأجنحتها تخفق بمدحك

وتهب كل المخلوقات المتوحشة على أقدامها

وكل ماله أجنحة يطير ويعيش »

ولا تقتصر مقدرة أتون وأفضاله على المخلوقات الظاهرة وإنما هي
تشمل ما لا يرى وما هو في دور التكوين :
« الأسماك في النهر تقفز امام وجهك
وأشعبتك تنفذ إلى أعماق البحر
انت تشكل الأطفال في الأرحام وتخلق النطفة في الرجل
انت تحيي الابن في بطن أمه
وتهب إليه الهدوء فيكيف عن البكاء
وعندما يحين مولده يخرج من الرحم ليتنفس
ثم تفتح له فمه وتمده بكل ما يحتاج إليه
وعندما يتشكل الكتكوت داخل البيضة
تعطيه الأنفاس داخل البيضة ليقوم أوده
وانت قدرت له الوقت الذي يخرج فيه من البيضة .
حتى يخرج من البيضة ويصوصو »
تمضي الانشودة فتعدد الأشياء التي صنعها الإله الأوحد
أتون » ، وهي كل ما تقع عليه العين من نبات وجماد وحيوان
أمم وبلاد :

« ما أكثر الأشياء التي صنعتها !
انت صنعت الأرض طبقا لإرادتك عندما كنت وحيدا
وخلقت البشر والماشية والوحوش وكل مايسير على الأرض بقدميه
وكل ما يعتمد على جناحيه ليطير
والبلاد الأجنبية في سوريا وكوش أرض مضر
ووضعت كل إنسان في مكانه وتكفلت له بحوائجه
أعطيت له رزقه إلى أن تحين ساعته
ولا تقتصر قدرة أتون على الخلق وإنما هي أيضا وراء وظيفة
حركة الأشياء بمعنى أنه المسير لكل شيء بإرادته وتدخله المباشر :
« انت ميزت بين الأمم

وخلقت النيل فى العالم الآخر
وانزلته إلى الأرض طبقا لإرادتك
كى يحيا عليه الناس أيها الرب الأوحد .
وكل أرض بعيدة ضمنت لها الحياة
أنت جعلت النيل ينزل عليهم من السماء
فيروى أراضيهم ويحضر إليهم كل ما يرغبون فيه
وانت صنعت السماء البعيدة كى تشرق فيها
وتنظر من عليائها إلى كل ما صنعت
بينما تتألق فى مظهر كاتون الحى
انت تلمع وتتألق بعيدا جدا ولكنك قريب
وانت صنعت ملايين الأشكال من جوهرك الفرد
المدن والقرى الحقول والطرق والأنهار
كل عين تراك أمامها فى كبد النهار وانت تشرق على الأرض «
هكذا كانت النظريات الرئيسية للعقيدة الجديدة تقدم أتون
باعتباره الخالق والمنظم والحاكم ليس للإنسان وحده وإنما لجميع
المخلوقات ، وليس لمصر وحدها وإنما للعالم كله ، إنه ملك الكون ،
ولذا فإن اسمه ، كاسم فرعون ، كان يوضع فى خرطوش تحف به
سلسلة من الألقاب كالملك ، ومنها مثلا « أتون الحى . رب كل
ما تحيط به الشمس . الذى ينير مصر . رب أشعة الشمس »

★ ★ ★

وحدانية قاصرة

غير أن العقيدة الجديدة رغم ارتكازها على الوحدانية إلا أنها كانت وحدانية مادية تفتقر إلى الكثير من التجريد الذى عرفته الديانات الوحدانية السماوية ، كما شابتها أخطاء كثيرة وقع فيها أخناتون ، وله العذر فى ذلك باعتباره رائد فكر جديد يفتقر إلى التجارب الكافية .

أما عن مادية الوحدانية الجديدة فإنها وإن كانت قد حرمت تصوير الإله فى شكل بشر ومنعت أية صورة لاتون إلا أنها وجهت العبادة نحو الأشعة المرئية المنطلقة من قرص الشمس ، وهى فى ذلك لا تختلف كثيرا عن عبادة رع القديمة . وهذه الأشعة كانت تصور فى النقوش كأنها منطلقة من محيط قرص الشمس على هيئة أشعة طويلة تنتهى بأيد بشرية غالبا ما تقدم إلى أنف الملك وأعضاء أسرته الرمز الهيروغليفى للحياة « عنخ » . كما كانت مادية الوحدانية الجديدة تسمح بمعاملة الإله الجديد نفس معاملة الآلهة القديمة فيما يتعلق بتقديم القرابين من الطعام والشراب وحرق البخور أمام مذبحه ، إلا أن عبادته كانت تجرى تحت السماء المفتوحة التى تغمرها أشعة الشمس ، إذ لا تناسبها بالتأكيد الأماكن المظلمة والمغلقة كما كان عليه قدس الأقداس للآلهة الأخرى .

وفى الوقت الذى طرحت الديانة الجديدة كل الأفكار السابقة عن العالم الآخر ، وألقت بمملكة أوزيريس بكل ما فيها من آلهة وملائكة ومردة وشياطين إلى جحيم النسيان ، إلا أنها ظلت تأخذ بالعادات الجنائزية القديمة كما هى بدون تغيير ، فاستمرت الجثة كما فى السابق تحنط ، والمومياء تدفن فى القبر المزود بوسائل حياة الميت ، وتوضع الأحشاء كما فى السابق أيضا فى أربع أوان كانوبية ويوضع حجر على شكل حشرة الجعران فوق قلب المومياء ، وتقام أهرام صغيرة فى المقبرة ، ويزود القبر بأشكال سحرية صغيرة تشبه

الاشافنتى لترافق الميت وتقوم نيابة عنه فى العالم الآخر بكل الأعمال التى يتطلبها الحقل الأبدى ، فهى تروى الأرض ، وتقلب التربة ، وتبذر الحبوب ، وتحصد المحاصيل ، ولكن اختفت الصيغ السحرية القديمة وحلت محلها الصلوات والترانيل لآتون ، ولم تعد غطيان الأنية الكانوبية الأربعة تمثل الآلهة القديمة ، وإنما حلت محلها غطيان على شكل رأس المتوفى .

أما الخطأ الرئيسى الذى وقع فيه أخناتون فإنه اعتبر الديانة الجديدة بمثابة ديانة خاصة به وأسرته ومعيته ، واعتبر آتون إلهه الشخصى أو ملكيته الخاصة ، ولم يحاول أن ينشر الدين الجديد فى أوساط الشعب أو يكسب له الأنصار المؤمنين الذين يكونون على استعداد للتضحية بحياتهم من أجل العقيدة وبذلك فقد الدين الجديد أهم ضمان للأديان جميعا وهو الانتشار والشعبية ، وبدلا من أن يكون حركة جماهيرية واسعة النطاق أصبح بمثابة مذهب فرد أرستقراطى لا يفيد أحدا ولا يهم أحدا غير الفرعون وحاشيته ، ولذلك لم تلق جماهير الشعب بالآ إلى الديانة الجديدة وإنما احتفظت بالآلهة القديمة المألوفة التى وجدت عليها الآباء والأجداد مما جعلها وقودا صالحا قابلا للاشتعال بمجرد انطلاق شرارة الثورة المضادة لاصلاحات أخناتون .

غير أنه لم تكن هناك مقاومة عنيفة ضد إدخال الديانة الجديدة فى أول الأمر ، أو على الأقل ليست لدينا سجلات عن قيام ثورات أو تمردات ضد سلطة الملك ، فقد كانت هيبة الفرعون لا تزال راسخة فى النفوس منذ أيام اعتباره بمثابة « الإله الطيب » الذى رضى أن ينزل من عليائه مع الآلهة ليرعى الناس على الأرض ، فمعظم كبار المسؤولين أطاعوا أوامر الفرعون أخناتون ، والذين اعترضوا أبعدوا عن مناصبهم أو نحوا من الطريق ، وهكذا سارت الرياح رخاء بسفينة أخناتون فى أول الأمر .

تمرد الأتالييم

ولكن إذا كانت الأحوال قد استمرت بهدوء في مصر فإن نتائج الإصلاح الدينى كانت ملموسة بدرجة كافية في سوريا إذ بينما استمرت الجزية التى يبعث بها الأمراء الخاضعون تتدفق على مصر كالمعتاد فى أول الأمر إلا أن من المؤكد أن ولاءهم لمصر ظل يفتر ويتراخى عاما بعد عام عندما لم يعد الفرعون يظهر على رأس جيشه كما كان يفعل من قبل ليخمد بيد قوية أدنى بادرة من التمرد ، فقد تحالف بعض الأمراء الرافضين للسيطرة المصرية فى شمال سوريا ، وحصلوا على تأييد من دولة الحثيين الفتية التى كانت فى طريقها للظهور فى آسيا الصغرى كما حصلوا على معاونة قبائل العابير والمحاربة (العبرانيون) الذين كانوا يشنون الهجمات للسلب والنهب ضد المناطق الخاضعة للحماية المصرية . وفى مواجهة تلك الجبهة القوية من الأعداء وقف القادة العسكريون المصريون والأمراء الموالون لمصر عاجزين عن أن يفعلوا شيئا بعد أن بح صوتهم فى مناشدة أختاتون أن يخف إلى نجدتهم ، فقد كان لأثذا بعاصمته الجديدة مكرسا كل جهوده لعبادة أتون وتوفير سبل السعادة لزوجته الجميلة نفرثيتى وبناته الأميرات تاركا الامبراطورية التى شادها أجداده تتهاوى أمامه حجرا حجرا دون أن يحرك ساكنا .

★ ★ ★

الثورة المضادة

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الحال إلى إثارة حنق العسكريين المصريين الذين بنوا تلك الامبراطورية بجهودهم ورشوها بدمائهم ابا عن جد منذ أيام تحتمس الثالث واسلافه وهؤلاء وجدوا حليفهم القوي الأكبر في كهنة آمون ألد أعداء أخناتون منذ البداية لأنه أهان آلهتهم وصادر ممتلكاتهم وأغلق معابدهم وجردهم من نفوذهم ، ومن هذا التحالف بين الطبقة العسكرية والكهنة بدأت المقاومة العنيفة ضد أخناتون بدون اكتراث من الشعب بل المؤكد أنه كان في صف الثورة المضادة .

ولسنا ندرى ما حدث على وجه التحديد ، فالأحداث في نهاية حكم أخناتون شديدة الغموض ، ولكن يبدو أنه في أخريات سنيه تراخى بعض الشيء في اتجاهه الجديد تحت ضغط الكهنة والجيش وأمه الملكة القديمة «تى» في محاولة لتحاسى الصراع العنيف في البلاد . اما نفرتيتى فقد ظلت فيما يبدو من أشد أنصار «أتون» مما أحدث الانفصال بينها وبين أخناتون . وانعزلت في قصر خاص بها في الطرف الشمالى من المدينة ومعها ربيبتها الطفل توت عنخ آمون الذى تزوج فيما بعد من ابنتها الثالثة « عنخ سن باتون » ، اما أخناتون فقد اتخذ له شريكا في الحكم الأمير « سمنخ كارع » وزوجه من ابنته الكبرى « مريتاتون » التى حصل بالزواج بها على حق ارتقاء العرش ، وأرسله إلى طيبة لمحاولة تهدئة كهنة آمون الغاضبين ، ولكن هذه المحاولة لم تكلل بالنجاح ولقى أخناتون نهاية غامضة ، وبموته انقضت صفحة الديانة الجديدة إلا من سنوات قليلة تعاقب على الحكم فيها سمنخ كارع وتوت عنخ آمون والقائد العسكرى أى الذى حصل على حق ارتقاء العرش بزواجه من ارملة توت عنخ آمون .

ثالثا : الأنكار الأساسية في الديانة المصرية

هكذا وئدت تجربة اخناتون في الدعوة إلى الوحدانية التي كانت أول دعوة من نوعها في تاريخ مصر ، ولم تعمر أكثر من مدة حياة صاحبها وإن كانت قد تركت خلفها بصمات واضحة خفتت من غلواء الوثنية المصرية في العصور اللاحقة .

غير أن الفكر الديني المصري ، بغض النظر عن فشل التجربة الوحدانية الأولى ، استشرف أهم المبادئ التي قامت عليها الديانات السماوية فيما بعد ، وهي مبدأ خلود الروح والحساب في العالم الآخر والجزاء على الأعمال الدنيوية بالنعيم أو الجحيم .

كان الاعتقاد راسخا في قلوب المصريين الوثنيين بأن الموت ليس نهاية كل شيء ، وإن الإنسان سيواصل الحياة في العالم الآخر تماما كما لو كان على الأرض بشرط أن تكفل له الشروط الضرورية للوجود ، وأولها أن يزود بالغذاء والماء ، ومن ثم كانت رغبة المصري الحارة أن يحصل في الحياة الأخرى على « آلاف الأرفة والأوز والثيران والجمجمة وكل الأشياء الحسنة التي يعيش عليها الإله » . ومن أجل ذلك كان كل مصري يزود مقبرته بجرار كبيرة مملأة بالطعام والشراب ، وإذا كان غنيا يوقف الأوقاف التي تضمن دخلها تزويد المقبرة في كل الأوقات بما يلزمه للحياة في العالم الآخر ، وإذا كان له أبناء أحياء أو أقارب وثيقيون فإن عليهم أن يذهبوا في أيام الأعياد الكبرى إلى مقبرته لتزويدها بالطعام والشراب والرياحين ، ومع ذلك لم تكن كل هذه الاشتراكات كافية ، فكانوا يغطون جدران المقبرة وجوانب التوابيت بكل أنواع الرسوم التي يمكن أن تتحول بالسحر إلى منتجات حقيقية تغطي الاحتياجات المادية للمتوفي ، وبالإضافة إلى مفردات الطعام والشراب كانت المقبرة تزود بادوات الزينة مثل المجوهرات والزيوت والعطور وكحل

العين والأثاث والملابس بل وحتى الأسلحة اللازمة لحماية المتوفى من أعدائه .

ولاشك أن إسراف المصريين في تزويد المقبرة بكل هذه الأشياء ، وكذلك إسرافهم في الحفاظ على سلامة الجثمان بالتحنيط وإيداعه في مكان حصين .. إلخ يدل على عدم نضج كاف في الفكر الديني إذ لم يتصوروا قدرة الخالق على إعادة الخلق من القرباب كما كان الخلق الأول من العدم ، وقد لازمهم هذا القصور في التصور في كل ما يتعلق بالحياة الأخرى ، فهم وإن كانوا يعتقدون في الخلود فإن الشرط الأساسي كي يبدأ الميت الحياة من جديد أن تتلى عليه نفس الصنيع وتقام له نفس المراسم كما فعل حورس بأبيه أوزيريس ، والدخول إلى مملكة أوزيريس يتوقف على تلاوة أعوذة وصيغ سحرية معينة بالإضافة طبعا إلى وجوب أن يكون الميت قد عاش حياة فاضلة على الأرض ، ولهذا كان من الضروري أن يمثل كل فرد بعد وفاته للمحاكمة في حضرة أوزيريس أمام ٤٢ قاضيا ويعلن نفسه بريئا من الأعمال الرديئة ، وبعد أن يتحقق ذلك يوزن قلب الميت بميزان الفضيلة أمام الإله تحوت ، وعندما تثبت براءته يسمح له بالدخول في مملكة العالم الآخر .

وظهرت أفكار مختلفة عن المكان الذي يقيم فيه الموتى الصالحون أغلبها أنه يقع في مكان ما في الغرب أي منطقة غروب الشمس ، كما كان من المعتقد في بعض التصورات أن الراحلين يتحولون إلى نجوم لامعة في السماء أو أنهم يحيون في حقول الأسل السماوية حيث يقومون بزراعة الأرض وحرثها وريها وحصادها كما كانوا يفعلون على الأرض فيما عدا أن سنابل القمح في هذه الحقول يصل ارتفاعها إلى ٧ كوبيت (١٢ قدما) .. وهذه حقا جنة رائعة للمفلاح المصري ! وهناك نظرية أخرى كانت أصلا خاصة بالملك وحده فحواها أنه توجد تحت هذه الأرض المالوفة التي يحيا فيها الناس أرض أخرى

سفلية مغطاة بسماء ويخترقها بطولها مجرى ماء ، وهذا العالم السفلى مقسم إلى اثني عشر جزءا تقابل الساعات الاثني عشر التي يتكون منها الليل وتفصل بين الجزء والآخر بوابات ضخمة ويسير موكب الشمس فوق المجرى المائى وعليه إله الشمس ذو الراس الخروف محاطا كالملك بحاشيته ، فيجلب لفترات قصيرة الضوء والحياة إلى المناطق المظلمة التى يبحر بينها ، ويرافقه في هذه الرحلة الليلية المتوفى سواء كمرافق لإله الشمس أو باعتبارها الإله نفسه .

وقد احرز فن التحنيط تقدما كبيرا بحيث احتفظت الجثة بكثير من الملامح المألوفة للمتوفى ، وفي البداية كان التحنيط مبسطا للغاية ، فهم يكتفون بإزالة الأحشاء من الجسد ، ويملاؤن تجويف البطن بقطع من القماش الرقيق المشيع بالراتنج ، ثم تنقع الجثة في محلول من ملح النطرون وتلف بالأربطة ، وفيما بعد كانوا يحقنونها بزيت خشب الأرز ، ومع مجرى الزمن حقق فن التحنيط تقدما هائلا ، فاصبحوا ينتشلون المخ من الجمجمة باستخدام شوكة حديدية ويضعون مكانه عجائن من الراتنج ليحفظوا بقدر الامكان ملامح الوجه ، ومنذ عهد الدولة القديمة كانوا يحفظون الأحشاء في أربع قوارير توكل بحمايتها أربعة آلهة مسئولة عن حفظ الميت من الجوع والعطش ، وكانت عملية التحنيط تستمر ما لا يقل عن سبعين يوما وبعدها تجرى كل احتفالات الدفن الصحيحة وتوضع الجثة المحنطة في النعش ، وتوسد القبر .



هذه باختصار أهم الأفكار الأساسية التى تعبر عن تصورات المصريين القدماء في الدين والعقائد والحياة بعد الموت ، وهى أن ذلت على شيء فإنما تدل على قيم عظيمة لم تصل إليها معظم الشعوب البدائية بل لعلها استشرفت بعض الذرى التى بلغتها الأديان السماوية اللاحقة . ولذلك فإن من الظلم الفادح للمصريين القدماء

ان يسموا بانهم كانوا أمة بائدة من الوثنيين بل كانوا شعبا متحضرا
في عقائده وتصويراته بالقدر الذى يسمح به التطور الزمنى فى ذلك
العصر السحيق الذى عاشوا فيه من تاريخ البشرية .



روايب قديمة فى حياتنا المعاصرة

لاحظ كثير من الكتاب والاثريين اوجه تشابه قوية بين كثير من ملامح الحياة المصرية المعاصرة ومثيلاتها فى العصر الفرعونى ، ومن هؤلاء الكتاب الذين اعتمدت عليهم فى هذا الفصل : محرم كمال فى كتابه « اثار حضارة الفراعنة فى حياتنا الحالية » ووليم نظير فى كتابه « العادات المصرية بين الامس واليوم » واحمد رشدى صالح فى كتابه « الادب الشعبى » ود . احمد عبد الحميد يوسف فى مقال له بالاهرام نشر فى ٢٨ / ٨ / ١٩٦٩ ووينفريد بلاكان فى كتابها . «The Fellahin of Upper Egypt» كما ان هذا الفصل نفسه مجتزأ من كتابى القديم « وحدة تاريخ مصر » (١٩٧٢) .

واول ما يلاحظ فى هذا التشابه ان السمات العامة للريف المصرى المعاصر ، لاسيما قبل ان تمسه عصا الثورة التكنولوجية ، تكاد تطابق تماما سمات الريف المصرى القديم من حيث تخطيط القرية ، وشكل المنازل ، واسلوب الحياة اليومية ، والادوات المستعملة فى البيت والحقل ، وطريقة الزراعة .

فالمنازل فى القرية المصرية الحديثة والقديمة على السواء تتكون من طابق واحد او طابقين ، وتقام بالطوب اللبن الذى يصنع بنفس الطريقة ، وتطلّى واجهتها بالجير الابيض او الملون ، وامامها نفس المصطبة ، ولها عدة درجات تصل إلى السطح حيث تجد نفس الصوامع الطينية التى تستخدم فى اشعال الفرن ، وهناك ملقفان لجلب الريح الشمالية والجنوبية فى اوقات القبط ، وهندسة المنزل الداخلية كما هى سواء بالنسبة لمنازل البقادرين ذات الحديقة

والحجرات المتعددة ، اوبيوت الفقراء التى تقتصر على غرفة واحدة يشترك فى سكنها الإنسان والحيوان ، بل ان الاختصاص المقامة بالطين والبوص فى الحقول تشبه مثيلاتها القديمة تماما . والحقول الحديثة تكاد تكون صورة طبق الأصل كذلك من حقول الفراغة بما تنقسم إليه من مربعات صغيرة يسهل ربيها وما يستخدم فيها من أدوات الزراعة كالمحراث والفأس والشادوف والمنجل والمذراة ، ومعظم طرق الزراعة والحصاد والتذرية المستخدمة اليوم هى نفسها التى كانت تستخدم منذ آلاف السنين .. هذا طبعا قبل وصول الميكنة الزراعية التى قلبت الصورة رأسا على عقب .

وشوارع القرية قديما وحديثا متشابهة ، يمكنك ان تشاهد فيها نفس المناظر ، فالرجال يرتدون نفس الجلابيب الزرقاء ، والنساء يتشحن بنفس الطرح ذات الألوان الزاهية ، والأطفال برؤوسهم الحليقة إلا من خصلة امامية تترك للزينة وبالعابهم الجماعية والرياضية والبهلوانية التى يمارسونها فى الهواء الطلق يعيدون كذلك صورة من الماضى السحيق ، كما يعيدها أبائهم وهم يتحاطبون بالعصى او يلعبون السبجة .

ويمكنك ان تشاهد اصحاب الحرف والصناعات اليدوية القدماء وقد بعثوا من مراقدهم واخذوا يزاولون حياتهم اليومية المعتادة إذا نظرت إلى أحفادهم اليوم وهم يعملون فى حرفهم اليومية داخل حوانيتهم الصغيرة ذات الأبواب المفتوحة على مستوى الطريق . والوشم الذى يزاوله كثير من الفلاحين اليوم يرجع إلى أقدم العصور وربما إلى ما قبل الأسرات ، ولا يزال الرجال ينقشون على جانب جباههم صورة عقاب كائر لتقديس الصقر حورس ، والنساء ينقشن على أذقانهن علامة « نفرت » التى ترمز للجمال .

وأدوات الفلاح المعاصر وحرفته اليدوية هي نفس الأدوات والحرف القديمة التي كانت تزاوُل في القرى المصرية منذ آلاف السنين ، فهو يصنع قوالب الطوب اللبن والأواني الفخارية بنفس الطرق والمواصفات ، ويستخدم روث البهائم نفس استخدامه القديم ، ويصنع نفس السلال والمقاطف والزكائب والاقفاص والحبال والأنوال والمغازل ، ويستعمل نفس المحراث والفأس والشادوف وخيل المقانة والمذراة ، ويجفف خبزه في الشمس ، ويقيم أسواقه في الهواء الطلق .

ويقدم محرم كمال هذا التصوير الشعري للتشابه القوى بين مظاهر الريفين الحديث والقديم في كتابه « آثار حضارة الفراغة في حياتنا الحالية » فيقول : « ونحن إذا سرنا على جسور القرى نرى صفوفاً من الرجال والماشية والدواب وهي تسير في الأفق البعيد فتعيد إلى ذاكرتنا مناظر الصفوف الطويلة المشابهة المرسومة على جدران المعابد والآثار ، ومما يزيد هذه الصورة حركة وقوة حياة ما نراه يرفرف فوق رؤوسنا من طيور ، فهنا نجد الآلهة المصرية القديمة « نخت » ترفرف في شكل عقاب ، وهناك يطير الإله « حورس » على شكل صقر كبير ، وعلى مدى البصر يسير الإله « أنوبيس » على شكل ابن أوى فيختبئ في الوديان والسهول ، وعند مواطئ أقدامنا نرى « خير » يسير متمهلاً في شكل جعل (جعران) صغير ، وهناك تحت الشجرة الباسقة نرى الإله « خنوم » يرقد تحت ظلها في هيئة كبش كبير ، وهكذا في كل جانب من جنبات الوادي وسهوله نرى الحروف والعلامات الهيروغليفية تقفز بيننا ، تذهب وتجيء ، كأنها نقوش معبد فرعونى قديم قد عادت إليها الحياة فجأة بقوة ساحر عظيم .

* * *

العادات والتقاليد

وكثير من العادات والتقاليد التي كان يمارسها المصريون القدماء لا تزال باقية إلى اليوم ولا تكاد تدخل تحت حصر ، منها مثلا لجوء الزوجة الغاضبة إلى منزل أخيها ، وعقاب الزوجة الخائنة والابنة الخاطئة بالقتل ، وولع النساء بالتزين بالحلى والكحل والشعر المستعار ، والتخلص من شعر الجسد ، وحب الاكثار من الاولاد الذكور ، والتمسك بوظائف الحكومة ، والعزوف عن الهجرة (فيما عدا الفترة المتأخرة) والتوسع فى الولايم والأفراح ، وكذلك العادات المصاحبة للموسيقى والغناء كالتصفيق بالاكف ، والطريقة باطراف الأصابع ، وإظهار الإعجاب بالمغنى . ووضع اليد على الخد عند الغناء أو تجويد القرآن ، وادوات الموسيقى كالمرزمار والدقوف والصاجات ، والزواج المبكر ، وتقاليد الزواج والولادة والرضاع ، وغسل الأيدي قبل الأكل وبعده . والتطهر بالاغتسال ، والاعتقاد فى السحر وقنونه وقدرته على النفع والإيذاء والتحبيب والتفريق ، واستخدام الدمى التى تخرق بالدبابيس وتحرق فى النار ، وتقلد التمايم والأحجية والتعاويذ ، والاعتقاد فى الحسد وأيام السعد والنحس ، وتعليق البصل فى الأعياد ، واستخدام طاسة الخضة ، وإقامة حفلات الزار لطرد العفاريت من الجسد ، وتكريم بعض المعبودات القديمة كالأشجار والقطط والثعابين ، وتعليق التماسيح المحنطة على أبواب المنازل ، ونحر الذبائح على عتبات المنازل الجديدة ، والوصفات الطبية الشعبية ، والعلاج بالعقاقير القديمة كالخردل والثوم وزيت الخروع . والاعتقاد فى القديسين والمشايخ المحليين ، والاحتفال بعيد وفاء النيل وليلة النقطة وشم النسيم وأكل الفسيخ والبيض والبصل والخس والملائة فى الحدائق ، وتناول الطعام على الطبلية فى البيوت ، وصنع كعك الاطفال على هيئة أشكال آدمية ، ومضغ

اللبن ، وحرق البخور ، وخضاب الشعر والأيدى والأقدام بالحنة ، وقرع الطبول والصفائح المعدنية عند خسوف القمر . وفكرة القرين الذى يطابق شكل المولود ويولد معه فى نفس اللحظة ، والاعتقاد بوجود « الأخت » أو القرينة ، وكذلك العادات المتصلة بالحيوان مثل تزيين ثيران الضحية ، وختم الماشية بخاتم محمى بالنار وتعليق الأجراس والجلجل حول رقاب البقر ، والاعتقاد فى تقمص الأرواح للقطط ، والرفق بالطيور وتحريم اصطياد النافع منها للزراعة ، وتسمين الدواجن بطريقة « الترغيط » .. كل هذه ومئات غيرها عادات وتقاليد انحدرت إلى المصريين المحدثين من أجدادهم القدماء ويندر ان تجد مثيلا لها بين الشعوب العربية الأخرى .

اما العادات المتعلقة بالحزن والوفاة فهى من أقوى العادات القديمة التصاقا بالمصريين المحدثين بالرغم من انها مستهجنة دينيا ومن هذه العادات البذخ فى إقامة المقابر ، والتطرف فى إظهار الحزن بالصياح والعيول وحل الشعر ولطم الخدود وشق الجيوب وتعرية النحور والائذاء وتلطيف الرؤوس والأجسام بالنيلة والطين واستئجار النسوة المحترفات للندب والتعديد . وتدور هذه المراسم المزعجة وجسد المتوفى مسجى فى فراشه ، ويدخل الأهل والأصدقاء لالقاء النظرة الأخيرة عليه . (كما فعل اخناتون وزوجته نفرтитى فى لوحة شهيرة وهما يلقيان النظرة الأخيرة على جسد ابنتهما المتوفاة) ثم يكفن الميت بأثواب عديدة قد يبلغ طولها عشرات الأمتار (فى حين ان النبی كفن فى بردته) وتغسل ملابسه لتخليص بقايا روحه العالقة بها ، وتصرف الروح بقراءة القرآن او استدعاء القسس (وكانوا قديما يستدعون الكهنة) ثم تبدأ مراسم الجنازة فتشارك النسوة فيها كما كن يفعلن قديما ، وربما يسير أمامها حملة القماقم والمباخر الذين يشبهون خدم الميت وكهنته فى العصور القديمة ، وعند الوصول الى المقبرة التى تشبه

فى هيكها المثلث مثيلتها القديمة يذبح حيوان وترش دماه على عتبة القبر (كما فعل سنوحى منذ أربعة آلاف عام) ويثوى المتوفى فى قبره بين العويل والصياح والتلاوة والإنشاد ، وأخيرا يقلل الركب عائدا حيث يمكث الرجال أمام المنزل لتقبل العزاء بينما تنفلت النسوة إلى الداخل ليواصلن عويلهن بين صديقاتهن المجاملات ، وتنزع النساء حليهن ، ويطلق الرجال ذقونهم ، ويمتنع الجميع عن مظاهر الترف أياما أو اسابيع (كانت فترة الحداد تستمر سبعين يوماً فى مصر القديمة وهى المدة التى تستغرقها عملية التحنيط أو أربعين يوما فى بعض الحالات .

وبعد ذلك تبدأ طائفة كبيرة أخرى من العادات المتصلة بهذا الحدث الجلل كزيارة المقابر فى الأعياد بالخبز والكعك والفاكهة وسعف النخيل ، والتصدق على روح المتوفى ، وتلاوة القرآن فى المقابر ، وطلب الرحمة والنور للاموات ، ومناشدة قارئ شاهد القبر أن يقرأ الفاتحة على روح المتوفى ، والاعتقاد بأن روح المتوفى تعود الى القبر فى أيام (الطلعة) لرؤية الأقارب والأحباب ، كل هذه العادات لها مثيلاتها الحرفية فى مصر القديمة .

* * *

الألفاظ وتصبيرات مصرية قديمة

ليست هذه العادات والتقاليد فحسب هي ما تبقى من مخلفات مصر القديمة بل نجد إلى جانبها مجموعة كبيرة من الألفاظ المصرية القديمة لاتزال عالقة بالالسنه تنطق كما هي فى نفس استخداماتها أحيانا وبتحريف ضئيل أحيانا أخرى لتدل بدورها على وجود استمرارية واضحة فى حياة المصريين .

ومن هذه الألفاظ مجموعة من أسماء الأشخاص لا تستخدم فقط بطريقة واعية بغرض احياء المجد القديم مثل رمسيس ومينا وتحتمس واحمس ورأس ، وإنما تستخدم كذلك بطريقة غير واعية وعلى نحو يفيد الاستمرار على الالسنه رغم نسيان معناها الأصلية ، ومن هذه الأسماء بانوب (أى عين الاله انوبيس) وباهور (عين الإله حورس) وتاييس (خادمة ايزيس) وباخوم (عين تمثال الإلهة) وبشأى (عبد الله) وأدم (اتوم) ومارى (مرى أى المحبوبة) وساويرس (من ساور أى الرجل العظيم)

ومنها أيضا أسماء الشهور القبطية القديمة التى لاتزال مستخدمة فى الزراعة وتحمل نفس اسمائها وخصائصها القديمة الى اليوم ، وهى : توت (شهر الإله تحوت) وبابه (عين امون) وهاتور (شهر حتحور) وكياك (شهر كاهناك أى اجتماع الأرواح) وطوبة (عيد القمح) وامشير (شهر إله الريح والعواصف) وبرمهات (نسبة إلى الفرعون امنمحات) وبرمودة (شهر رنودة إلهة الحصاد) وبشنس (شهر بن خنسو إله القمر) وبثونة (باونى أى عيد جبانة وادى الملوك) وإيبب (عيد الإله أبيبى) مسرى (مس . رايه ابن رع)

ومنها طائفة كبيرة جدا من أسماء المدن والقرى التى بقيت كما هى او حرفت قليلا ، فمن الأسماء الباقية كما هى دون أدنى تحريف : طرة ، بسيون ، صهرجت ، شطانوف . دفرة . طوخ .

شبرا . شبراخيت ، شبراريس ، شبرامنت ، مطاى ، طهطا . قوص ،
كوم امبو ، بلامون ، ياويط ، اسنا .

ومن الاسماء المحرفة قليلا : اثر النبى (هاتور نثوب اى معبد
حتحور الذهبية) حلوان (حر . أون اى المدينة التى تعلو أون)
الفرما (بر . ماعت اى معبد الآلهة ماعت ربة العدل والفضيلة)
دمنهور (دمی . ن . هور اى معبد الإله حورس) الرقازيق (جقاچيق
بالقبطية) بليس (بر . بيس اى معبد الإله بس إله المرح
والسرور) تل بسطة (بر . بابسة اى معبد الإلهة بابسة القطة)
أبو صير (بر . أوسير اى معبد الإله أوزيريس) سنهور (سا . ن .
حور ابن الإله حورس) بهييت (بر هبيت اى معبد الاعياد) بنها
(بنها وبالقبطية) بولاق الدكرور (بولاق . دكرور اى جزيرة
الضفادع) سقارة (نسبة للإله سكر إله الجبانة) الفيوم (بى . يوم
اى الأرض المغمورة بالماء) ميدوم (بر . أتوم اى معبد الإله أتوم)
اهناس . (هنسو بالهيريوغليفية وهناس بالقبطية) المنيا (منت اى
الميناء) أشمونين (شمتو اى مدينة الآلهة الثمانية) ملوى
(متلوى بالقبطية) أسيوط (سيوط ومعناها الحارس) اخميم
(خم . مين اى مدينة الإله مين) طما (حت . طمت بالهيريوغليفية)
دندرة (تندرر بالهيريوغليفية وتنترة بالقبطية) قفط (جبثو
بالهيريوغليفية ومنها اسم القبط واسم مصر باللغات الأجنبية)
ارمنت (بر . منت اى بيت الإله منتو) إدفو (ادبو بالقبطية)
اسوان (سوون اى السوق بالهيريوغليفية) النوبة (نثوب اى أرض
الذهب) .

وإلى جانب ذلك هناك تعبيرات كثيرة لانزال نستخدمها فى حياتنا
اليومية وليس لها أصل عربى وإنما أصلها قبطى وفرعونى ولكنها
لا تزال قوية وموحية فى اللغة العامية الدارجة لتدل بدورها على
الاستمرارية فى حياة المصريين . من هذه التعبيرات كلمة دميرة

التي لا يزال يستخدمها الفلاحون الى اليوم ومعناها فيضان النيل ، وحسى أى بئر أو عين ماء ، وفى أى مجرى أو قناة وبيع واصلها بوبو وهو عفريت يخيف الأطفال ، وبخ أى عفريت أو شيطان . ومم وهى مدم أى طعام ، وامبو ومعناها شراب ، وفنه هوة وهى دعوة للنوم ، وتانا ومعناها المشى ومنها اسم نفرتيتى وترجمته الجميلة تتهادى ، ووظ فش وهى توس فيش وهو الشيء اليابس الذى لا يثمر ، وابن الإله أى « ابن البقرة » وتيليس وهى مشتقة من الكلمة الفرعونية ليس أى طين ومنها لوصة أو وحل ومنها ايضا تعبير هيلاليسا الذى يستخدمه المراكبية إلى اليوم وترجمته هيا نخرج من الوحل ، وكلمة يمهيص مشتقة من مه . يص أى سرعة أو قفز بلا نتيجة ومنها مهيصة ومهياص وهو الرجل الكثير الحركة بلا انتاج ، وسباب جاك أوأ أى جاعك الويل أو الحسرة ، وباك طمسة أى فلتدفن لأن الطمسة فى الفرعونية هى الدفن ومنها فول مدمس أى مطموس أو مدفون ، وببية وهى حشرة البرغوث ، وحمرا أى غش فى اللعب ، وعنتيل وهو القوى من الكلمة الفرعونية انتورى واشتقت منها الكلمة اليونانية قنطورس وهو حيوان قوى براس انسان وجسد ثور . وخن كلمة قبطية معناها داخل ، ومشرش أى مكسر ، ومخلخل أى مخلع ومخمخم أى فاسد ، ويشطف أى يغسل الملابس من الكلمة الفرعونية ايشتوفو ومنها طشت وهو أنية الغسيل ، ويشطح أى يسهو ، وخم وتستخدم للدلالة على تفضيل الشيء نتيجة للجهل بحقيقته ويقال أنا اتخيمت أى فضلت شيئا على شيء باعتباره خطأ انه الأحسن ، ونونو أى صغير ، ويولول من ويلويلتى أو ولولة وهو النوح والبكاء . ويشنشن أى يرن أو يطن ، وصهد أى نار أو لهيب ، ونجرة أو نقرة الشمس من نج .. رع أى شمس شديدة ، وشاشا من شاهشا أى سطع أو أضاء ، ويوش أى يصدر صوتا رتيباً ، وباش أى لان أو طرى ، ويوش أى

سلب او نهب ومنها راح بوش اى راح بلا ثمن ، وكوش اى اخذ
لنفسه كل شيء ، ويبشيش اى يندى الثرى ، وامان وامين هما
تحريف امون ، ورخ اى نزل المطر او الماء ، وياما من اما بمعنى
كثير ، وكانى مانى اى سمن وعسل اما دكان الزلبانى فهو دكان
البقال ، وحاتا باتا اى لحم وعظم ويقل نزل على الاكل حتتك بتتك
اى لم يترك منه لحما او عظما ، وليلى يا عيني اى افرحى يا عيني
وقد وردت فى انشودة العذراء مريم ومطلعها بالقبطية : ليلي اودى
برتينوس اى افرحى ايته العذراء .

ويقدر محرم كمال عدد الكلمات الفرعونية والقبطية المستخدمة
فى لغتنا الدارجة بالمتئات ان لم يكن بالآلاف أصلا او اشتقاقا
او ترجمة حرفية ، وهى تكثر فى مجالات الحياة اليومية المختلفة
ولاسيما فى الأعمال المزاولة من قديم والعادات القديمة المتوارثة .

* * *

الذاكرة الشعبية

يقول احمد رشدى صالح فى كتابه « الأدب الشعبى » .
« الواقع أن الأدب القبطى العامى واللغة الدارجة القبطية مزاجا
الأدب العربى واللهجات العامية العربية ، واستوى من ذلك مزاج
عربى قبطى ، أو قل استوى مزاج قبطى اسلامى ، وهذا يصدق على
الشكل والمحتوى سواء بسواء ، ولو أردنا ان نشير إلى المحتوى -
أى المعتقد الشعبى - أيام العهد الاسلامى لما استطعنا إلا أن نجد
مكملا للمعتقد الشعبى الفرعونى وان كان مكملا له فى وجه جديد ،
وكما ان المصريين أخذوا المسيحية دينا رسميا دون أن ينبذوا فعلا
تصوراتهم الوثنية السابقة فكذا اقبلوا على الإسلام يعتنقونه
ولا يتخلون عن تلك التصورات بل غالبا ما كانوا يذيعونها . وما يقال
عن المعتقد الشعبى يقال عن اصول المعارف الشعبية وكذلك
السلوك الاجتماعى وقضايا الاخلاق وغيرها .

ويضيف : « إذا كنا نؤرخ لأدبنا الشعبى الشفاهى باستخدام
العامية فى مصر فالواقع ان جذوره أقدم من ذلك بكثير وانها ترجع
إلى الأدب الشعبى المصرى الفرعونى القبطى فى اطواره
السابقة .. ومخطوطة المستشرق أويستروب التى يعتبرها البعض
أقدم نص عامى مكتوب فيها مزيج من مفردات العاميتين القبطية
الصعيدية والعربية الدارجة ، ومؤدى ذلك ان الكتبة والصناع
والفنانين كانوا فى المرحلة الأولى الطويلة اقباطا مزاجا أو اقباطا
رسميا ودينيا .. وكذلك حدث تزاوج بين الروح الإسلامية وبين الفن
القبطى ، فالزخارف الإسلامية المكونة من الخط والنقطة كان موطنها
الأول مصر ، ويوجد مصحف بدار الكتب المصرية يرجع إلى أوائل
القرن الثانى الهجرى وبه زخارف قبطية ، وهناك رق مكتبة جوتا

بمدينة ميونيخ الذى يتضمن صفحة من القرآن وبها فواصل بين
السور عبارة عن زخارف قبطية ، ومعظم زخارف جلود الكتب
الإسلامية الأولى بمصر بها زخارف ذات طابع قبطى والتواريخ
عليها على أساس التقويم القبطى »

كما تناقلت الذاكرة الشعبية جيلا بعد جيل قصصا وإساطير
وخرافات تعود إلى مصر القديمة أو تدور حول أحداث سحيقة
أو تتعلق بأثار مصرية قديمة .

* * *

وقد سجلت وينفريد بلا كمان فى كتابها عن فلاحى مصر العليا
بعض هذه القصص التى لايزال يحكيها قصاصو القرية المحترفون
ومنها « قصة شاه إيران وابنته والبقرة الذهبية التى سجلها
هيرودوت نقلا عن المصريين . وتقول القصة الحديثة ذات الأصل
القديم الذى سجله هيرودوت ان ابنة شاه إيران الجميلة احتالت
للتهرب من عزم أبيها الزواج منها بأن صنعت بقرة ذهبية واختبات
فى جوفها ، وباع شاه إيران البقرة الذهبية ، وهو يجهل ما فيها ،
إلى ملك الهند الذى اكتشف امر الفتاة وأحياها وقرر الزواج منها
عندما تنسج الفرصة ، وحدث أن سافر ملك الهند لبعض شؤونه فى
الخارج وطلب من أمه ان تقدم كل يوم الطعام للبقرة وتتركها هى
وشأنها ، ولكن بنات عمه الشريرات - وكن يطمعن فى الزواج من
الملك - يكتشفن أمر الفتاة ويحتلن على أم الملك حتى يأخذن البقرة
ويوقدن نارا تحتها ، فتخرج منها الفتاة ثم يضعن الفتاة فى صندوق
ويلقين به فى اليم فينتشله شيخ صياد يابى الفتاة فى أسرته ،
وعندما يعود الملك ويكتشف ضياع البقرة الذهبية يصيبه الحزن
البالغ ، أما الفتاة فكانت تنسج المناديل وتعطيها للصيد الشيخ
لبيعها والارتزاق منها ، وطلبت الفتاة من الصياد ان يبيع منديلا

معينا للملك نفسه ويحترز من أن يصل إلى أى مشتر آخر ، وعندما وصل المنديل إلى يد الملك قرأ عليه ما نقشته الفتاة عن أمرها ومكان وجودها فبعث فى احضارها واجتمع شمل الحبيبين ، وبطش الملك ببناات عمه الشريرات .

* * *

وهناك قصة شعبية أخرى تحكيها عجائز الفيوم عن مغامرات احد الشطار وهى تماثل حرفيا القصة الفرعونية التى سجلها هيرودوت عن اللصين اللذين أسر لهما أبوهما البناء قبل وفاته بسر الدخول إلى خزائن الملك عن طريق حجر مسحور يسهل تحريكه ، وحين يكتشف الملك انتفاص جواهره تباعا مع أن باب الخزائن مقفل واختامه سليمة يأمر بصنع فخ يوضع فى حجرة الكنوز ، ويأتى اللصان كالعادة لسلب مزيد من الجواهر فيسقط أحدهما فى الفخ ولكنه يطلب من أخيه أن يقطع رأسه ويأخذها معه حتى لايتعرف عليهما الملك ، وفى الصباح يكتشف الملك - لحيرته - الشديدة - جثة بلا رأس قد أمسك به الفخ ، فيأمر بتعليق الجثة فى السوق حتى يكتشف احدا من اقارب اللص إذا وجده يبكى بالقرب من مكان الجثة ، وتطلب أم اللصين من ابنها الحى أن يحضر جثة أخيه فيحتال على ذلك بأن يدفع حراس الجثة إلى احتساء كمية كبيرة من الخمر كان ينقلها فوق قافلة من الحمير ويتظاهر بأنها تسيل منه على الأرض ، وعندما ينام الحراس من فرط السكر ، يفك اللص جثة أخيه المقطوعة الرأس ويحملها عائدا إلى أمه . وتزداد حيرة الملك ويقرر القبض على اللص مهما كان الثمن فيضع ابنته فى مأخور ويطلب منها أن تسأل من يتردد عليها عن أبرع وأخبث ما فعل فى حياته ، وإن تمسك على الفور بمن يخبرها بهاتين المغلرتين أى سرقة الكنوز وسرقة الجثة . ويحضر اللص اثناء الليل ويقص على ابنة

الملك تفاصيل مغامراته وعندما تهم بالامسك به يضع فى يدها كفا مقطوعة كان قد احضرها معه لهذا الغرض ، ويتسلل هاربا تحت جناح الظلام ، وعندما يعرف الملك ما حدث تزداد دهشته واعجابه باللص الشاطر فيعفو عنه ويزوجه من ابنته - هذه القصة اوردها شوقى عبد الحكيم فى الملحق الأدبى لصحيفة الأخبار ٢٩ / ٦ / ١٩٦٩ بعد ان سمعها شفاهة من عجائز بلدته الفيوم وعقد مقارنة بينها وبين قصة هيرودوت تدل على التشابه المطلق بينهما .

* * *

وتدل هاتان الحكايتان - ومن المؤكد ان هناك كثيرات غيرها - على أن ذاكرة الشعب المصرى تحتفظ بحكايات فرعونية قديمة لاتكاد تفقد تفاصيلها القديمة رغم مضى آلاف السنين ، وهذا دليل على انها ذاكرة تضرب فى اعماق الماضى البعيد وان التراث القديم يتناقل شفاهة عبر الأجيال - ويمكنك أيضا أن تراجع فى هذا الشأن « اسطورة اوريست والملاحم العربية ، للدكتور لويس عوض وفيها يثبت أن ملحمة الزير سالم تحمل آثار اسطورة ايزيس واوزيريس . اما الأساطير والخرافات التى تدور حول مصر القديمة واثارها العجيبة ولايزال يتناقلها المصريون الى اليوم فهى كثيرة ومتواترة ، وقد أورد بعضها محرم كمال فى كتابه « آثار الفراعنة فى حياتنا الحالية ،

* * *

فهناك اسطورة « الذهبية العجيبة » التى يحكيها اهل الاقصر ويزعمون فيها أن سفينة ذهبية تظهر فى بعض الليالى القمرية على سطح البحيرة المجاورة لاطلال معبد الكرنك ، وعليها ملك من الذهب الخالص يحف به بحارة من الفضة ، وتنشق طريقها على سطح البحيرة مخلفة وراءها ذيلا من الأحجار الكريمة ، والسعيد من

يصادف هذه السفينة ويتتبعها في صمت وهدوء حتى ترسو على الشاطئ فيقفز إليها في غفلة من حراسها ويغترف من كنوزها مايشاء . أما إذا أبدى حركة رعناء أو صوتا يجعل ركاب السفينة يفتنون إلى وجوده فسوف تضيق فرصته النادرة ، إذ تختفي السفينة الذهبية فورا تحت سطح الماء .

* * *

فهذه الاسطورة اثر باق من الاحتفال بعيد الإله آمون على صفحة البحيرة المقدسة المجاورة لمعبده حين كان الكهنة يحملون تمثال آمون المصنوع من الذهب الخالص ويخرجون به من قدس الأقداس حيث يضعونه في السفينة المقدسة التي يركب فيها أيضا الملك وكهنته وكبار حاشيته ويقومون بجولة في أنحاء البحيرة المقدسة بين الترتيل والانشاد .

* * *

ونفس الاحتفال بأمون يكاد يتكرر كل عام بتفاصيله حتى الآن وذلك في الاحتفال بمولد سيدى أبى الحجاج الولي الإسلامى حامى الأقصر والمتخذ مقامه بين اطلال معبد الأقصر ، إذ يوجد في هذا المقام قارب أو سفينة صغيرة يحملها الناس على أكتافهم في عيد أبى الحجاج الذى يوافق ليلة النصف من شهر شعبان المكرم ويطوفون بها في عربة ذات عجلات في أنحاء الأقصر . فالرموز الحديثة المستخدمة في الاحتفال بأبى الحجاج توحى بالرموز القديمة المستخدمة في الاحتفال بأمون كالقارب المقدس والقيام بجولة في المدينة ، والاحتفال الشعبى بأبى الحجاج وما يتخلله من غناء ورقص وعبث وشراب يكاد يعيد صورة طبق الأصل من الاحتفال بأمون حيث كان الكهنة - كما تسجل النقوش - يحملون تمثاله في قارب صغير على أكتافهم ثم يضعونه في السفينة المقدسة الكبيرة الراسية أمام المعبد حيث تنقله الى معبد الكرنك

وبحيرته المقدسة ويشارك فى المهرجان النبلاء والجنود وقد رفعوا
الاعلام والبنود ، والناس من حولهم يبتهجون ويرقصون ويشربون
بينما يعرض اللاعبون والمهزجون الغابهم وفنونهم ويعزف
الموسيقيون على آلاتهم .. وجميعها مناظر تكاد تتكرر بحذافيرها فى
مهرجان أبى حجاج إلى اليوم .

* * *

وعلى مقربة من معبد الكرنك يوجد معبد قديم للإله بتاح اشتهر
بين سكان الأقصر بأنه مقر غولة فظيعة تفترس الأطفال ، وتاكد
لديهم هذا الاعتقاد المجهول المصدر عندما انهار جرف أثناء بعض
أعمال التنقيب بالقرب من المعبد ودفن تحته سبعة أطفال صغار
كانوا يلهون على مقربة منه ، ولم تظهر جثثهم أو عظامهم بعد ذلك
على الإطلاق ، وكان الأهالى لشدة اعتقادهم فى صحة خرافة الغولة
يتحاشون المرور بهذا المكان قدر إمكانهم ، فإذا اضطروا إلى ذلك
اعترتهم رعشة الخوف وتمتموا بالتعويذ . وظل أصل هذا الاعتقاد
مجهولا حتى كشفت الحفريات الحديثة عن تمثال هائل للآلهة
« سخمت » ذات رأس اللبؤة والسحنة البشعة داخل ذلك المعبد .
و « سخمت » هى التى وكل إليها « رع » فى الاسطورة القديمة مهمة
إفناء الجنس البشرى عندما ازداد فسادا وشروا فاعترقت سخمت
البلاد فى الدماء ، واعملت فى الناس الفتك والقتل ، ولذلك ظلت
مرهوبة الى الآن كما اظهرت اسطورة الغولة قاتلة الأطفال ، ولك ان
تتصور مدى الرعب الذى عقد السننحة عمال الحفائر الاقصريين وهم
يخرجون تمثال الغولة « سخمت » من تحت أطباق الثرى .

* * *

وفى قفط كانوا يرددون اسطورة اثبتها المقريزى فى خططه
تتلخص فى أن المعبد الفرعونى المقام فى تلك البلدة تتولى
حراسته فتاة سوداء تحمل على ذراعها طفلا صغيرا اسود مثلها ،

وترى هذه الفتاة فى اللبالي القمية ترتاد جنبات المعبد وفناءه
حاملة طفلها ، هذه الفتاة الاسطورية ليست فى الحقيقة سوى
ايزيس تحمل طفلها الرضيع حورس اذ ان قفط وهى كبتوس القديمة
كانت محلا لعبادة الربة ايزيس ، وفيها معبدها .

* * *

اما اهالى دندرة فيرددون أسطورة أخرى عن المعبد الفرعونى
هناك تتلخص فى ان أحد الملوك القدامى أودع أمواله وذخائره فى
نفق داخل هذا المعبد وأقام على حراسته بقرة عظيمة لاتزال ترى
إلى اليوم وهى تنتقل فى أرجاء المعبد أثناء الليل لتراقب كنزها
المخبوء ، ورغبة فى سبك الأسطورة يضيفون ان فلاحا معينا
- يحددون اسمه - استطاع ان يغافل البقرة وينتهب بعضا من هذا
الكنز ، ولكنه لم يستفد بما أخذه ، إذ غاص فى ارض بيته ولم
تستطع يداه ان تصل إليه . ولكن بغض النظر عن هذه التفاصيل
يمكننا ان نرى بوضوح ان هذه البقرة الاسطورية ليست إلا ظل
البقرة المقدسة « حتحور » التى اقيم معبد دندرة مركزا لعبادتها
وترى مرسومة على جدرانها .

وفى بلدة اثريب ، وكانت قديما مركزا لعبادة الصقر « حورس » ،
توجد أسطورة مماثلة أوردها المقريزى أيضا فى خططه عن حمامة
بيضاء تحوم فترة من الزمن حول مذبح أحد الأديرة القديمة فى يوم
معين من السنة .. هذه الحمامة ليست سوى الصقر « حورس » .
ونفس الخرافة تتكرر فى الوقت المعاصر عن معبد « خنسو » ،
بالكرنك والبوابة البطلمية الضخمة المقامة أمامه ، إذ يقال ان قرماً
مخيفاً يعيش فوق البوابة ذا خلقه مشوهة وقامة قصيرة ممثلة وله
وجه عريض وعينان براقتان وأنف افطس ولسان متدل وذراعان
طويلتان تصلان إلى الأرض . والاهالى يرهبونه بشدة ويتجنبون
المرور بالقرب من البوابة ليلاً لأن هذا القرم إذا احتاج أخذ يرسل

صياحا مخيفا ويصب شروره على الجميع من ناس وحيوان . هذا
القرم ويسمونه « عيط الله » ما هو إلا صورة طبق الأصل للمعبود
المصرى القديم « بس » ذى اللسان المتدلى والملاح المتنافرة
والذى اقيمت البوابة تكريما له . وقد ظلت ذكراه عالقة بأذهان
الناس آلاف السنين بعد أن نسوا كل شيء عن أصله .

* * *

فنون ومهارات قديمة

إلى جانب مثل هذه الرواسب الفولكلورية المتنوعة المتخلفة عن العصور المصرية القديمة نجد أيضا أن المصريين المحدثين لديهم الوان من الفنون والمهارات توارثوها جيلا بعد جيل عن أجدادهم الفراعنة .

يقول أدولف إرمان إن أغاني الفلاحين والمراكبية التي تتردد اليوم بين الحقول الخضر وعلى صفحة النيل كان يردد انغامها من قديم الزمان فلاحو مصر الفرعونية وملاحوها ، ويكفى دليلا على ذلك أن الموالم المصري بمعانيه وإلحانه يعتبر نسيج وحده فى العالم العربى ، فمن أين جاءت هذه الخاصية أن لم تكن ميراثا تتناقله الأجيال ؟ ويقول أدولف إرمان : ولست أدرى ما إذا كانت الثغثة الأنفية المعينة التى تصاحب هذه المواويل والألحان هى أيضا ميراث من العصور القديمة ، ولكن من المؤكد أن حالة البهجة التى تصاحب الغناء هى نفس ما كانت عليه فى الماضى .

ومن الوان المهارات القديمة التى نجدها فى المصريين المحدثين تلك المقدرة غير العادية عل تحريك الأشياء الثقيلة وحملها باليسير من العون الآلى ، وتظهر هذه المقدرة بوضوح فى عمال البناء والتنقيب عن الآثار رغم اعتلال صحتهم وضعف بنيتهم ، يحكى عالم الآثار المرحوم محمد زكريا غنيم فى كتابه « الهرم الدفين » أن صديقا انجليزيا أخبره كيف كان يراقب فى دهشة وفزع محاولة نفر من الشبان المصريين الأقوياء الذين يرتدون الجلابيب نقل تمثال هائل من الجرانيت فى متحف الآثار المصرية ، كان هذا التمثال تبلغ زنته مائة طن أو أكثر ، ولكن الغلمان المصريين تكالبوا على التمثال بادواتهم البسيطة التى لا تعدو قطعا من الحديد والخشب والحبال ، ومع صيحاتهم وتنهدياتهم تارجح التمثال بينهم وبدا يتحرك معهم إلى مكانه الجديد ، كان هذا فنا قديما جاء من السلف ،

وهل يعجز أحفاد من حملوا صخور الأهرام على اكتفاهم العارية عن
زحزحة تمثال ؟!



يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه « مصر ورسالتها » ..
ولعل بلدا من بلاد الأرض لاتصدق على حضارته صفة الاستمرار
كما تصدق على مصر ، فإن مصر التي ولدت منذ نحو خمسة آلاف
سنة لازالت هى بعينها اليوم لم يتغير فيها الدين على طول هذه
الاحقاب إلا مرتين ولم تتغير اللغة إلا مرتين أيضا على حين ان
بريطانيا مثلا لا يبعد تاريخها إلى أبعد من ألفى سنة تغير الدين
خلالها مرتين واللغة أربع مرات على الأقل ، واسبانيا يرجع تاريخها
إلى ألفين وخمسمائة سنة تغير الدين خلالها ثمانى مرات واللغة
ست مرات ، أما جنسنا فلم يتغير فى جملته خلال هذه الأعصر
إلا تغيرات طفيفة فى حين ان بلدا كإيطاليا تعاقبت عليه أجناس
كثيرة غيرت عنصر السكان تغيرا هاما أكثر من مرة ونتيجة ذلك ان
طبيعة الحياة فى مصر وجوهرها لم يختلف كثيرا رغم هذه الأحقاب
المتطاولة بل ان العين تقع اليوم على مشاهد كانت موجودة كماهى
اليوم أيام الفراعنة .

ويفسر الدكتور جمال حمدان سبب هذه الاستمرارية بسيطرة
ظروف طبيعية معينة على حياة مصر فى مختلف العصور ، فهذه
الظروف ترسم خطط إدارة البلاد واستغلال مواردها على نحو واحد
تقريبا ، ولذلك فإن أعمال أى من الفراعنة أو السلاطين أو الحكام
تتكرر فيما عدا الأسماء والتواريخ ، ونمط الحياة والزراعة يمثل
وحدة الحياة على ضفاف النيل .

شخصية مصر : حـ ١ ص ٤٧٨)

محتويات الكتاب

ص

- تقديم : دكتورته نعمات أحمد فؤاد ٣
 - فكرة العدالة في مصر القديمة ١٣
 - حكماء وادى النيل ٢٩
 - تأمل .. لا شيء يفوق قدر الكتب ٤٧
 - عندما اعتلى الشعب المسرح ٦١
 - بزوغ القيم الفردية والديمقراطية ٧٧
 - لم يكونوا مجرد عبدة أو ثمان ٩٧
 - رواسب قديمة في حياتنا المعاصرة ١٢١
-

رقم الايداع بدار الكتب ٧٦٢٨ / ١٩٩٠

الترقيم الدولي ٥ - ٠١٦٣ - ٠٨ - ٩٧٧ - ISBN

● **لضمان حصولك على كتاب اليوم شهريا** ●

أخبار اليوم (إدارة الاشتراكات)
أرجو إرسال كتاب اليوم لمدة ١٢ شهرا على العنوان التالي :

الإسم :

العنوان :



● **الاشتراك السنوى :**

جمهورية مصر العربية ١٢ جنيه مصرى

البريد الجوى :

دول اتحاد البريد العربى والافريقى ١٥ دولار أمريكى

وباقى دول العالم أوروبا والأمريكيتين

وأسيا وكندا وأستراليا ٢٠ دولار أمريكى

.. يمكن قبول نصف القيمة عن ٦ شهور .

مرفق شيك مصرفى مسحوب على أحد البنوك

العالمية لأحد اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم

AKHBAR EL-YOM SUBSC. DEPT.

ارسل هذا الكوبون على العنوان التالى

مؤسسة اخبار اليوم (إدارة الاشتراكات)

١٣ (شارع الصحافة - القاهرة)

AKHBAR EL-YOM SUPSC. DEPT.

3A SAHAFA St., CAIRO

كتاب اليوم
عدد أول ديسمبر

أخر مكتب العالم الكبير
الدكتور سيد عويس

لغات وتعبيرات شعبية وصريّة

« دراسة علمية ثقافية اجتماعية »
أول قاموس للتعبيرات الشعبية

• ترشيد مدوره •

نيون

أحدث منظف صناعي



مغسوة وفيرة
يزيل الدهون
والعرق
زوايا زكية
الناس

شركة اسكندرية للموتور وال

١٥ قرشا